منشورات الاختلاف
Editions Ikhtilaf

سمير قسيمي

في عشق امرأة عاقر

رواية

لمزيد من الكتب والروايات تفضلوا بزيارة
مدونة الحب في غرفة الإنعاش
تابعونا عبر تويتر @mjanen23
فيس بوك 3abeth

في عشق امرأةٍ عاقر

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/

في عشق امرأةٍ عاقر

رواية

تأليف

سمير قسيمي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

http://mzaj4.blogspot.com/

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0062-6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

http://mzaj4.blogspot.com/

الإهْـدَاء

إلى ابني نور الدين بوخالفة

شكرا لليالي البيضاء التي منحتني لكتابة هذه الرواية

إلى أمّي رحمها اللّه.. وسادة في قبرها

http://mzaj4.blogspot.com/

«البلاد التـــي أنجبت بن مهيدي وكريم بلقاسم وغيرهما ليست عاقرا وقادرة على إنجاب رجال آخرين عظماء عظمة الشهداء..».

جميلة بوحيرد

«يـــا وطني اللعنة. يـــا بغيّا من دون قلـــب لا تشبع. يا تفاحة حمـــراء كبيرة وناضجـــة: دع الدود يخرج منك، وابـــق شامخا تسمو وتكبر وتصبح أجمل تفاحة في هذا الكون».

ميودراك بولاتوفيتش

تنـويـــه

حدثت هذه القصة بين الساعة الخامسة والنصف والسابعة من مسـاء يوم الأربعاء 17 نوفمبر2010. ورغم أنها حدثت فعلا، فإنّ من واجب الكاتب أن يعلن أنَّ كل تشابه بين شخصياتها وأحداثها ومكان حدوثها مع الواقع مجرد صدفة.

http://mzaj4.blogspot.com/

القِسْمُ الأول

تقريرٌ وافٍ عن
حالة موتٍ مستعجلة

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الأول

قطار الخامسة والنصف

-1-

الخامسة و27 دقيقة..

في مثل تلك الساعة من مساء كل يوم، ينتهي عمل امرأة عادة ما تقف عند نهاية الرصيف المحاذي لمحطة القطار «آغا»، تماما حيث يلتقي جميع الراجلين قاصدي المحطة مهما كانت وجهاتهم. لتنصرف إلى حيث لا يدري أحد.

وبانصرافها تصبح حركة الراجلين أكثر سلاسة وأكثر سرعة، بحيث لا يجدون أنفسهم مضطرين إلى تخفيف سرعاتهم، ثم التوقف للإجابة عن سؤالها اليومي «هل معك عشرة دنانير؟».

لا أحد يعلم بالضبط متى تبدأ عملها هناك، فتؤمِّم نصف المتر المربّع الذي تحتله، غير آبهة برجال الشرطة، على بعد خطوات، واقفين أمام المبنى القديم لوزارة المالية حرَّاسا عليه. حتى بات من المألوف، بفضلها، أن يجتمع النقيضان في مكان واحد لا تفصلهما إلا أمتار: غنى الدولة الفاحش وفقر الشعب المدقع.

الأكيد، أن الراجلين الذين يبدؤون حياتهم بعد منتصف النهار كانوا يجدونها دائما هناك، على عكس الذين يقتحمون نهار العاصمة كل صباح، قادمين من غيرها من مدن مجاورة ومن أحياء تنسب إلى العاصمة حياء فحسب.

http://mzaj4.blogspot.com/

لا أحد، غير الله، يعلم متى تبدأ، ولكن الجميع يعرف بالضبط متى تنتهي تلك المرأة من عملها، ليعود الرصيف الذي تقف عليه إلى عادته كأي رصيف في العاصمة.

وبانصراف تلك المرأة التي لم يرَ أحد وجهها، بسبب النقاب الأسود الذي تضعه عليه، تبدأ حركة الراجلين العائدين من حيث أتوا. «هؤلاء الذين يفتحون العاصمة كل فجر»، ليعودوا إلى جحورهم كل مساء بعد أن ذاقوا ذلك الطعم الرائع بالانتماء إليها. ففي كل يوم ولمدة ثماني ساعات، يتناسون جلودهم، يعلقون ألسنتهم ويئدون لهجاتهم ولكناتهم التي فطروا عليها. يصبحون عاصميين بحق. لكنهم، للأسف أو لحسن الحظ، حين ينهون أعمالهم وينظرون في ساعات أيديهم أو هواتفهم، يدركون أن وقت سندريلا قد انتهى.. بالطبع لن يحزنوا كثيرا لأنهم أكثر الناس إدراكا أن مصير كل حفلة تنكرية، مهما بدت رائعة، أن تنتهي في وقت محدد سلفا.

في ذلك الوقت من مساء كل يوم يحدث كل هذا دون أن يلاحظه الناس. على الأقل، أغلبهم لا يلاحظ تلك المرأة الواقفة عند نهاية الرصيف بجلبابها الأسود ونقابها الساترين لكل شيء منها، عدا عينيها الحادتين كعيني قنَّاص تقرران مَن يموت أولا. لكنهما على خلاف عينيه كانتا، رغم حدَّتهما، أقل قسوة وأكثر ملوحة، ربما بسبب لون المقلتين العسليتين، أو بسبب الكحل الكابت على شفرها، أو حتى بسبب شعور الامتنان الذي تطلقانه كلما أعطاها أحدهم عشرة دنانير إجابة لسؤالها.

ولأن الطبيعة عادة ما تسخر من «صناعتها» بحجة أن الكمال لا يصلح لغيرها أبدا، فإن لا أحد - وإن لاحظ جمال عيني تلك المرأة - كان قادرا على أن يجزم إلى أي نوع هي من الإناث: شابة،

http://mzaj4.blogspot.com/

عجوز، جميلة، قبيحة.. لا أحد، حتى حسان ربيعي الذي أدرك خبث الطبيعة في صناعتها حتى قبل أن يدرك أن أكثر أعدائه المرآة.

فعادة، حين تستعد المرأة المنقبة، المتجلببة ذات العينين الحادتين لمغادرة مكان عملها، يقف حسان ربيعي على الرصيف المقابل، أسفل شارع شاراس – قادما من عمله بالبريد المركزي – ينتظر فرصة ليقطع الطريق إلى حيث تقف. ومن هناك يلتحق بجموع الراجلين العائدين من حيث أتوا. ولكنه، وعلى خلافهم، لم يكن يأبه بسؤال المرأة لتستوقفه الإجابة. ببساطة، لأنه لم يشعر أبدا أنها حين تسأل تسأله هو بالتحديد.

في ذلك لم يكن مخطئا على الإطلاق. ففي كل مرة يمر بقربها كانت المرأة تمتنع عن سؤاله، لتسأل من يليه من الراجلين.

إلا أنه في ذلك اليوم الماطر من شهر نوفمبر 2010، وبالتحديد في السابع عشر منه، حين كان حسان ربيعي واقفا أسفل شارع شاراس، ينتظر كعادته فرصة قطع الطريق، لمح تلك المرأة تنظر في اتجاهه. كان الأمر غريبا أن تنشغل به عن عملها وهو الذي لم يعطها شيئا في حياته.

فكّر وهو يبحلق في بحلقتها أنها لا تنظر صوبه وأنه متوهم فحسب. وللحظة شعر بما اعتاد على أن يشعر به كلما وقف حيث يقف على الرصيف المقابل.. «لا شيء».

قطع الطريق دون أن ينظر صوبها..

كان يركّز نظره في محل التبغ الذي كانت تقف بجواره، والذي يعمل فيه نفس الشخص الذي أشرف عليه منذ ثلاثين سنة. كان هذا المحل ومحل الكتب القديمة أعالي شارع ديدوش، ما يجعلانه يحنُّ أحيانا إلى العاصمة، فمنذ أن غادرها قبل عشرة أعوام، لم يشعر نحوها

http://mzaj4.blogspot.com/

بأي حنين، وهو الآن، على خلاف الراجلين العائدين من حيث أتوا، لا يشعر نحوها حين يفارقها بأي أسى.

ما أن بلغ الرصيف المقابل، حيث تقف، حتى مدّت المرأة إليه كفها: «هل معك عشرة دنانير؟».

سمعها وكأنه سمعها أول مرة.

لوهلة فكّر أن يتوقف، لكنه لم يفعل أكثر من رفع يده اليمنى في الهواء دون أن ينبس بكلمة أو يلتفت إليها.

شعر وهو يخطو الخطوات الخمس التي تفصل المرأة عن محل التبغ أنه فعل أمرا فظيعا لم يفعله في حياته من قبل.. لقد تجاهل أحدهم أخيرا.

هذا الشعور وبحلقة المرأة فيه قبل قليل وسؤالها له أول مرة، جعله يدرك أمرا أكثر وطأة.

توقف عند محل التبغ وحدقتاه تغوران في جوفي عينيه وكأنهما تحفران في وجهه الطويل.

ابتسم له صاحب محل التبغ بشكل يوحي أنه زبون قديم وبادره بصوت رخو مسلوب: «كالعادة فيما أعتقد».

ودون أن ينتظر إجابة، وضع علبة سجائر من نوع «ريم» وخمس عشرة حبة حلوى بنكهة الكاراميل، وبحركة آلية استجاب حسان ربيعي ووضع أمامه قطعة نقدية لمائة دينار.

كان صاحب محل التبغ ذو السبعين عاما يتطلع إلى وجه حسان وكأنه يبحث عن تفصيلة ما، ولكنه سرعان ما استرجع ابتسامته وأعاد ضبط وجهه على ما كان عليه، بلا ملامح، حين أدرك أن صدى ابتسامته التي يقتضيها العمل لن يرجع إليه.

http://mzaj4.blogspot.com/

ومع هذا، وكأنه لم ييأس من زبونه، أخذ يشيعه بعينيه اللاحمتين حتى كاد حسان ربيعي أن ينعطف يمينا في اتجاه المحطة، غير أنه عوض أن يستمر في السير صوبها توقف ليلتفت إلى المرأة المتجلببة، ذات النقاب الأسود والعينين الحادتين. وما كاد يفعل حتى تقاطعت نظراتهما، إذ كانت لا تزال تبحلق فيه من خلف.

عاد أدراجه وتقدم نحوها، حتى إذا واجهها شعر بأنها تبتسم له. سألها: «تعرفينني؟».

لم تجب.

اكتفت بمدّ كفها الأيمن من جديد.. «هل معك عشرة دنانير؟».

صمت برهة وحرّك رأسه كما يفعل المستغفَل، عادة، حين يكتشف عبطه. ودون أن يفكر مدَّ يده إلى جيب سرواله وسحب ورقة بألف دينار. وضعها في كفها وانصرف.

لو أنه كان يملك عينين خلف رأسه، لرأى كيف تسمَّرت المرأة ذات العينين الحادتين في مكانها، وكيف مدَّ صاحب محل التبغ رقبته ولوَّاها ليشيِّعه مرة أخرى وهو ينعطف يمينا في اتجاه المحطة.

كانت تلك أول مرة تتأخر فيها المرأة المتجلببة، ذات العينين الحادتين، عن موعد مغادرتها للرصيف. وكانت تلك أول مرة أيضا يتأخر فيها حسان ربيعي عن قطار الخامسة والنصف.

http://mzaj4.blogspot.com/

-2-

لم تكن بينه والقطار الموالي إلا أربعون دقيقة.

اختـار آخـر مقعـد فـي الخط الثاني على الرصيف الثاني، ووضع محفظته «السكاي» بجواره على مقعد آخر.

كانـت المحطـة فـي الوقـت الـذي دخلهـا فيـه شـبه خاليـة مـن المسافرين، فباستثناء عمال الشيمينو ذوي السترات البرتقالية والصفراء وثلاثـة أزواج، منزويـن بشـكل فاضـح، اختاروا انتظار القطار الموالي لقضـاء أكبـر وقـت مـع بعضهم. كان حسـان ربيعي فـي أكثر أوضاعه ألفة على الإطلاق.

لو أنه خيِّر ساعتها بين البقاء في تلك المحطة، شبه المهجورة، والذهـاب إلـى منزلـه لاختـار البقاء بلا شـك، فلم تكن الوحدة، رغم خطورتهـا عليـه، إلا رفيقـا مـن طبيعـة خاصـة، ولـولا يقينه بخطورتها لجازف واختار الانزواء بنفسـه ومحادثتها فيما يحب. على الأقل لن يكون حينها مجبرا على أن يكون معها ذلك الرجل الجاد، المسؤول، المهموم بكل شيء. سيعود مع نفسه إلى آخر مكان تركها فيه، حيث قـرر ذات يـوم، قبـل ثلاثيـن عامـا، أن يئـد الطفـل الـذي كانه. ما زال يذكره خيالا، وأحيانا يتذكر بعض شقاوته وأحيانا أخرى يذكر بعض أحلامه. ولكنه الآن وقد بلغ الأربعين لم يعد قادرا على رسم وجهه بدقة. ملامحه لم تعد إلا خيالات خطوط لا تنتهي إلى أي تشكيل.

ولأنه لم يُخيّر، وغالبا لن يُخيّر أبدا، لم يشغل باله بأكثر من ذلك.

كان كل همـه، وقتئـذ، كيـف يعيـد برمجة رحلة عودته إلى منزله

http://mzaj4.blogspot.com/

بسي مصطفى.

فـي العـادة كان يسـتقل قطـار بومـرداس في الخامسـة والنصف. وحين يبلغها بعد سـاعة يسـير حوالي عشـر دقائق حتى يصل موقف الحافـلات بجـوار المستشـفى، أين يسـتقل حافلة إلـى مدينة زموري، يصلها بعد عشرين دقيقة. وهناك يستقل أخرى في اتجاه سي مصطفى، فإذا وصل هناك سار ربع ساعة على قدميه ليبلغ منزله.

كانت رحلة العودة، بكل احتمالات التأخير الممكنة، لا تستغرق أكثر من سـاعتين ونصف السـاعة، أي أنه كان في كل الأحوال يصل منزله قبل نشرة أخبار الثامنة أو معها على أقصى حد. أما وقد تأخر عن قطار الخامسة والنصف، فعليه أن يعيد حساباته كلها.

جميع حسـاباته انتهت عند يقين أنه لن يصل قبل التاسـعة ليلا، وأن رحلة عودته التي تكلفه عادة مائة وعشـرة دنانير، سـتكلفه، على أقل تقدير، سبعمائة.

في لحظة ندم غير أكيد، وضع حسان ربيعي رأسه بين يديه وقد أدرك كيف للحظة انتباه واحدة أن تجعله يغير كل خططه. كان يكفي أن يسمح لسؤال المرأة ذات العينين الحادتين بتخطي حدود تجاهله لتنقلب حياته كلها.

«لم يعد الأمر مهما.. ما حدث قد حدث».

سلَّى نفسه وهو ينظر إلى شاشة هاتفه ليعرف الساعة. لم تمضِ إلا دقيقتان منذ جلوسـه على مقعده. لقد كان عليه أن يجتهد ويجد طريقة يقضي بها الوقت المتبقي.

كان مـن عادتـه إذا اسـتقل القطـار أن يشـغل وقتـه بقراءة كتاب. هذا الشهر شرع في مطالعة رواية ميودراك بولاتوفيتش «رجال بأربع

http://mzaj4.blogspot.com/

أصابع»، ولم تعد تفصله عن النهاية إلا ثلاثون صفحة. كان يدرك وهو يفكر في طريقة لقتل الوقت المتبقي، أن الصفحات المتبقية من روايته لن تمكنه من قتل إلا ساعة من الزمن. لن يجازف بقراءتها الآن، لأنه لو فعل لوجد نفسه مضطرا لأن يجلس لاحقا في القطار، وسط الغاشي، يستمع إلى ترهاتهم.

وإذ ذاك. فكر لو أنه يشرع في قراءة ما اعتاد على حمله في محفظته من جرائد. فقد كان كلما هم بمغادرة مكان عمله، في قسم الودائع في الطابق التحتي بمبنى البريد المركزي، يعرج على مكتب الأمانات ويستولي، خلسة، على كل ما تقع عليه يداه من جرائد.

في أسوأ الأوقات كان يجمع عشرة عناوين، وفي أحسنها عشرين. أما اليوم فلم يجمع سوى سبعة عشر عنوانا، ثلاثة بالفرنسية والبقية بالعربية. هكذا إذا جفاه النوم، وهذه عادته، يجد ما يجهد به عينيه حتى ينام.

كانت تلك وظيفة الجرائد في نظره، ولعله رأفة بزوجته كان يضيف إليها وظيفة أخرى كلما احتاجت لشيء تمسح به المرايا أو الأثاث، أو حين كانت ترغب في تنظيف السمك، خاصة السردين.

«إذن فلها وظيفة ثالثة!».

همس لنفسه ويده اليمنى تتسلل إلى جيب جاكيته الكشمير الرمادية، لتخرج منه بسيجارة وضعها بين شفتيه العريضتين، وحين اطمأن على موقعها بينهما، في الزاوية اليمنى بالضبط، أشعلها وأخذ نفسا عميقا جعله يسعل على مرتين، وبحركة هادئة فتح محفظته وأخرج منها رزمة الجرائد ووضعها على حجره.

من مكانها هذا، لم يستطع حسان ربيعي التمييز بينها ليختار البدء بأكثرها شهرة.

http://mzaj4.blogspot.com/

ابتسم وهو يدرك صعوبة التمييز بين جرائد لا تميز لها، وإذ ذاك بدأ يتصفحها واحدة واحدة.

كانت جميعها تتحدث عن وطن رائع مزدهر، عن شعب لا يقسم إلا برأس رئيسه، عن رئيس لا هم له إلا إسعاد شعبه. جميعها تتحدث عن نسب النمو المرتفعة وعن البطالة التي لم تعد إلا ذكرى وعن المشاريع العظيمة التي ستجعل البلاد في المقدمة.

للحظة فكر أنه أخطأ وحمل معه نسخا كثيرة لجريدة واحدة، ولكنه سرعان ما تذكر السبب الذي جعله يتوقف عن قراءة الصحافة، حين انتبه، في غفلة وذات يوم، ما أصبحت تثيره في نفسه تلك الجملة السخيفة تحت عنوان كل جريدة «يومية مستقلة». لم تعد فكرة الحرية تثير في نفسه إلا المزيد من الضحك.

ولمرة أخيرة ابتسم لنفسه وهو يعيد تلك الجرائد إلى محفظته. لقد كان يعلم كم ستكون زوجته سعيدة به هذه الليلة وهو يدخل عليها بكل ذلك الورق الرخيص، وكأنه اعتراف غير معلن لها بعبقريتها حين اكتشفت أن لكل تلك الجرائد وظيفة أخرى غير الطمأنة والتخدير.

لعله لحظتها أسف لاستنتاجاته تلك، ولكنه، وهذا أمر مؤكد، لم يحزن ولم يسع حتى ليتدبر في الأمر، فلم يكن له من همّ، حينئذ، إلا أن يجد طريقة أخرى لقتل الوقت المتبقي عن موعد القطار القادم، فقد أدرك حين نظر إلى شاشة هاتفه النقال مرة أخرى، أن كل تلك الجرائد على اختلاف عناوينها ولغاتها ومقراتها ورؤوس أموالها وعدد سحبها، لم تستطع أن تقتل سوى خمس دقائق من وقت الانتظار.

http://mzaj4.blogspot.com/

-3-

وإذ هو ينظر في شاشة هاتفه انتابه الفضول ليفتح ملف الرسائل التي حفظها فيه، فقد فكر أن إعادة قراءتها سيقتل بعض الدقائق إلى حين قدوم القطار. كان يأمل في أن تقضي إعادة قراءتها على عشر دقائق على الأقل، ما دام لا يذكر أنه قد سبق ومحا أية رسالة وصلته.

أسعده الأمر أنه لا يزال محتفظا ببعض الحيلة التي خُيِّل إليه أنه فقدها بعد زواجه، حين اقتنع، أو أجبر على الاقتناع، بأن لا مجال للابتكار في زيجة غير متكافئة منذ البداية.

لم تكن متكافئة: لأنه كلما وقف أمام المرآة وتأمل وجهه الطويل، المحفَّر بسبب ندوب ما بعد «حَبّ الشباب»، وأمعن النظر في تلك الثلة السوداء فوق حاجبه الأيمن الكثيف، شكك في أسباب قبول زوجته به. كان مقتنعا أن «الحُب» لا يمكن أن يحجب عنها تلك الصورة التي يراها كلما وقف أمام المرآة. حتى أمه التي أنجبته ما كانت لتخفي عنه قرفها منه لو تجرأ وسألها. فقد كان بطوله الفارع «متران وعشرة» وتيبّس جسده النحيل وغور عينيه الواسعتين بلا معنى، وبوجهه العظمي الطويل المنتهي بذقن هلالي، يشبه كلبا سلوقيا سيئ الأكل.

لم يكن يحتاج إلا لنمو الشعر الكثيف على جسده الأمرد، ليصبح شقيقا توأما للرجل ذي القدم الكبيرة الذي كثيرا ما قرأ عنه في الروايات الأمريكية. وبالفعل، كان مقاس قدمه الـ «48» يصدق هذا التشبيه. لذلك فهو حين كان يشكك في أسباب قبول زوجته به، لم يكن موسوسا أو حتى شكاكا.

http://mzaj4.blogspot.com/

لا يـزال يذكـر أول مـرة سـألها فـي الأمـر، كان ذلـك سـنة بعـد زواجهمـا. لـم تجبـه إلا بضحكـة متكلفة وبجملة لم يفهمها في حينه: «لأنني أحببت يديك وقدميك».

احتاج سنوات ليفهم ما قصدته، حين قرأ على النت دراسة تؤكد الأسطورة الشعبية المتداولة بخصوص العلاقة الغريبة بين حجم اليدين والقدمين وحجم العضو الذكري..

سـعد أنْ راودته فكرة قراءة «أَسَماسـاته» التي لم يمح أيا منها. كان لا بد أن تكون كثيرة إلى درجة أنها لن تقتل عشر دقائق فحسب، بل كل الوقت المتبقي لوصول القطار الموالي.

هكذا اطمأن حسان ربيعي على الصفحات الثلاثين المتبقية من رواية بولاتوفيتش القاسية، تلك التي جعلته يتصور كلما تقدم فيها أن مقته لـ «الوطن» يتزايد أكثر فأكثر. عرف أخيرا أنه لم يكن شاذا في هذا العالم المتبجح بالوطنية الزائفة، ثمة من هم أكثر منه نبذا لفكرة «الوطن الإجباري»، ذاك الذي تولد فيه، لتموت فحسب.

كان الوطن بالنسبة إليه أكبر من مجرد وثيقة تبلى في أي حين. كان أكبر حتى من النسب. والأكيد، أكبر من كل ذلك الكذب المنمق الذي اعتاد أن يسمعه في نشرة الأخبار، تلك التي سيفوتها الليلة.

«أخيـرا حـدث شـيء أخرجـك مـن سـجن الروتيـن الـذي بنيته برضاك».

خاطبه الصوت الغائر فيه.

«أتذكُـر تلـك الأيـام التـي كنت تسـخر فيهـا من زوج أمك البليد حين تراه يعود إلى المنزل، مساء، لاهثا حتى لا يفوّت النشرة. كنت تقـول لأمـك: «انظـري لـم يتزوج عليـك ولكنك تملكين ضرة». الآن

http://mzaj4.blogspot.com/

صرت مثله، دجَّنوك كما دجَّنوه. لم يحتج الأمر إلا لصفعتين وبعض الضرب على القفا لتصبح مثله».

كان الصوت الغائر فيه، أول صوت يسمعه كل يوم وآخر صوت يودعه كل مساء.

كانت تكفيه لحظات فراغ فقط ليلازمه اليوم بطوله. لهذا لم يشأ أن ينتظر القطار الموالي دون أن يلهيه شيء يمنعه عنه. ولهذا أيضا كان سعيدا بفكرة «أساماساته» التي حين هم بفتح ملفها، سمع زعيق قطار قادم من بعيد.

«أيمكن أن يكون القطار قد وصل قبل وقته؟».

لم يكد يجيب حتى صدر صوت من أعلى:

«نعلم المسافرين أن القطار الداخل على الخط الأول الرصيف الثاني، في اتجاه محطة الجزائر. فالرجاء من المسافرين المتوجهين إلى محطة الجزائر، التزموا أماكنكم واحذروا الانطلاق».

تملّكه الضحك وهو يتذكر تلك النكتة التي سمعها من أحدهم حين حدث وقدم قطار الخامسة والنصف قبل وقته بثلاث دقائق. قال له،جادا، من غير أن يبتسم: «لم يتقدم عن وقته، كل الظن أنه جاء متأخرا عن وقته بيوم إلا ثلاث دقائق». لحظتها انفجر جميع من سمعه ضحكا، حتى هو ضحك دون أن يستر، كما اعتاد دائما، فمه أو يغطيه خشية أن يرى الناس ذلك الفراغ المفزع داخله، فبعد سنين من التدخين المستمر والكثيف لم يعد يحتفظ إلا بنابين وبقاطع واحد. كان في ذلك يشبه الرضيع الذي بدأ ينبت الأسنان، باستثناء أن ما بقي في فمه كان أصفر، أسود، ممعنا في النتانة.

ضحك الناس وضحك هو، إلا صاحب النكتة، فقد التزم

http://mzaj4.blogspot.com/

الصمت، ببساطة لأنها لم تكن نكتة.

وعوض أن يبدأ في قراءة رسائله، قرر دون أن يفكر طويلا أن يستقل هذا القطار المتوقف على الرصيف الآخر. كانت الفكرة أن يقتل أربع أو خمس دقائق أخرى من زمن الانتظار، وبعدها يبدأ في قراءة رسائله.

هرول نحو المعبر الحديدي بين رصيفيِّ المحطة. صعد، ركض ثم نزل وأخيرا ركب على متن القطار. وما كادت الأبواب الكهربائية تنغلق حتى شعر ببعض الراحة. تلك التي يشعر بها، في العادة، من يلحق بشيء مهم كاد أن يفوته. ثم اختار لنفسه مكانا ووقف فيه.

كان القطار من ثلاث مقطورات، كل واحدة تجر أربع عربات متصلة بما يشبه الأكورديون الضخم. وكان هو واقفا في العربة الثانية من المقطورة الأمامية. لم يشأ أن يجلس رغم توفر المقاعد الشاغرة. ففي مثل تلك الساعة يبدأ انقراض العائدين من حيث أتوا، بحيث تعود العاصمة لأول ما فطرت عليه: حافلات وقطارات شاغرة، شوارع يمكن السير فيها بلا طوابير، طرق غير مزدحمة.

من مكان وقوفه بجانب الباب المتحركة،كان يرى المطر يهطل بلا هوادة. كان الجو رديئا بشكل لم ير مثله منذ أعوام.

تمنّى لو أنه كان ساعتها في غرفة نومه مستلقيا يقرأ شيئا ما. بالطبع لم يكن ما تمناه ليصير حلما يستحق الانتشاء لو كانت زوجته مستلقية معه، لذلك فقد كانت فكرة وجودها معه على السرير فكرة غريبة، سرعان ما أعادته إلى منظر المطر الذي كان يشتد مع مرور الوقت، حتى كاد يغرق سكة الحديد.

شعر بتباطؤ القطار، ثم بفرملة خاطفة اقتلعته من مكانه حتى كاد يسقط لولا أنه تشبث بعمود قريب منه. وما أن توقف القطار كليا،

http://mzaj4.blogspot.com/

زعق صوت من مكبرات الصوت الموجودة في كل عربة: «احذروا.. مكابح اضطرارية».

حين استعاد توازنه وتوقف الصراخ الفجائي لامرأة كانت تجلس في أول عربة، نظر من خلال الباب المتحركة مرة أخرى، فرأى المطر وقد أغرق كل سكة الحديد.

كان القطار متوقفا في المنعرج الأخير قبل محطة الجزائر، على بعد مائتي متر منها.

تمكن، بصعوبة، من أن ينظر إلى فوق، حيث توجد قناطر السكوار الضخمة ذات المداخل الآجورية المقوسة والممتدة من شارع «علي بومنجل» إلى ساحة بور سعيد، والتي أخبره أحدهم أنها في العمق تتسع وتمتد لتغطي، تحت الأرض، كيلومترات مربعة حتى تبلغ «كليما دي فرنس» بباب الواد.

ابتل كل شيء في العاصمة حتى امتلأت الأرصفة وفاضت الطرقات، وكشفت «المدينة - الحلم» عن وجهها الذميم، ذلك الذي لا يظهر عادة إلا إذا جنَّ الليل واطمأن «المخرج المتذاكي» إلى أن جميع الكاميرات أطفئت وأنّ لا أحد سيرى تلك الفئران الآدمية وهي تعود إلى مراقدها عند مداخل العمارات وتحت المعابر الطرقية المختلفة وأقواس بور سعيد وبلكور.

لكن الليلة ستكشف «المدينة - الحلم» عن أكثر أوجهها قبحا على الإطلاق، حين تتشبع بالوعات الطرق ويعلو الماء ويعلو، ليحتل مراقد فئران العاصمة، ويحقنها بالمزيد من التشرد.

كان حسان ربيعي وهو ينظر من خلال الباب المتحركة، يدرك أن هذا المطر القاسي لن يكتفي فقط بتشريد هؤلاء المتعودين على التشرد، بل سيضيف إليهم عددا آخر كعادته. ثم سيأتي بعد انقشاع

http://mzaj4.blogspot.com/

السحب وتوقف المطر وجفاف الأرض، رجل ضئيل ليحزن معهم ويواسيهم ويعلمهم بالسر الأعظم الذي لا يعلمه سواه «هذا من قضاء الله». سيكرر هذا ثلاثا ثم ينصرف من حيث أتى، لا إلى المدن المجاورة للعاصمة مثل العائدين من حيث أتوا، بل إلى أعلى قمة فيها، أين يمكن أن يرى كل شيء وحيث لا يراه أحد.

http://mzaj4.blogspot.com/

-4-

لم يكن حسان ربيعي قد استفاق بعد من الأسى الذي خلفه فيه غرق سكة الحديد تحت الماء، ليفاجئه مكبر الصوت بخبر جديد:

«نعلم المسافرين المتوجهين إلى محطة الجزائر، أن القطار سيتأخر عن موعد وصوله بوقت غير محدد».

امتلأت العربة بالتعليقات الساخرة والتذمر والسخط العلنيين، في حين انزوى شاب في منتصف العشرين وانكمش على نفسه وتمتم بشيء جعل فتاة كانت تجلس بجانبه تقوم من مقعدها وهي تنظره شزرا. أما بعض المراهقين، ممن كانوا منشغلين بالنكت وأخبار صديقاتهم وجديد الهواتف النقالة، فقد صمتوا لما يربو عن نصف دقيقة ليعودوا سريعا إلى أحاديثهم الأولى.

تأمَّل حسان ربيعي الوضع الجديد، فبدا له أن من الضروري لو أعاد حساباته كلها، ولكن ليس الآن. عليه أولا أن يبلغ محطة الجزائر، وبعدها يرى ما يجب عمله. لهذا فمن المنطقي أن يهاتف زوجته ويخبرها بتأخره المحتوم.

لم تدم مكالمته أكثر من لحظات. أنهاها وهو يلعن لامبالاة زوجته، وكأنها كانت تأمل ألا يعود للبيت أبدا.

فجأة صمت الجميع، حين انطفأت الأضواء وغرق الركاب في ظلمة زيتية بالكاد يرى الواحد فيها يديه.

«أصبح الوضع حرجا».

قال لنفسه وهو يتحسس طريقه بكفيه وقدميه حتى بلغ المقاعد

http://mzaj4.blogspot.com/

وجلس كيفما شاء. كان مضطرا لأن يجلس في تلك الظلمة وينتظر دون أن يفعل شيئا، فحتى خيار الصفحات الثلاثين في رواية بولاتوفيتش لم يعد مطروحا.

عليه، الآن، أن يواجه أخطر ما واجهه لحد اليوم.. الصوت الغائر فيه. كان عليه أن يمنعه من الوصول إلى رأسه ويستحوذ عليه. وإن بدا الأمر شبه مستحيل، فعليه على الأقل أن يمنعه من أن يكون الصوت الوحيد فيه.

أغلق عينيه وهو يصغي لصوت المطر يقصف سقف القطار، كان الصوت شبيها بطرق متعجل بآلة حادة على باب حديدية.

كان في ظلمته الأخرى، غير ظلمة العربة، يحاول أن يتبين آخر الطريق: عتمة.. عتمة. عتـ..

وفجأة، انفجرت ذكرى قديمة وقفت حاجزا بينه وبين الصوت الغائر فيه.. «أف لقد نجا».

تذكر أول مرة تعرف فيها على العتمة. كان ذلك في ربيع 1980، وكان وقتئذ في العاشرة من العمر، وفي الرابعة ابتدائي.

ففي يوم كأي يوم، لا يذكره بالتحديد، وجدته أمه ساعات الصف الدراسية يلعب الكرة في ردهة سوق ميسونيي، تلك التي تربط جهتي الحي الشرقية والغربية، وتصل بين ميسونيي الوسطى والعليا، حيث تقابلها مدرسة وهيبة قبائي للإناث.

حين سألته أخبرها كذبا أن مدرِّسة العربية لم تحضر وأخذ الصف نصف يوم إجازة. صدَّقته وأمرته أن يحمل حقيبته ويعود معها إلى المنزل. كانا وقتها يستأجران شقة أرضية من غرفتين بشارع لاريوش.

ولكنها دون قصد، حملت عنه حقيبته، فشعرت أنها خفيفة بشكل

http://mzaj4.blogspot.com/

لا يصدق.

لم تمهله وفتحتها.

ذعرت وهي ترى أن الحقيبة لا تحوي إلا أوراقا بيضاء لا شيء مكتوبا عليها.

سألته عن كتبه، كراريسه وأقلامه، لكنه لم يجب.

قال لها حين أدرك أنها تقوده في اتجاه الابتدائية إنه أفاق متأخرا ولم يلحظ أنه لم يحمل شيئا في محفظته.

لم تستطع تكذيبه ما دامت لم تنتبه له ساعة أفاق، فعملها الليلي لا يسمح لها بالعودة إلى شقتها إلا فجرا، وهي بالكاد، وقتما تعود، تكون قادرة على أكل أي شيء، لتخرّ مصروعة كالميت، وحين تصحو مساء بعد العصر أو قبله أحيانا، يكون حسان إما في المنزل بعد انتهاء الصف أو في الابتدائية.

ومع أنها لم تكذبه، فلم تر ضررا في أن تسأل مديرة المدرسة عن أحوال دراسته.

أدرك حسان ساعتها أنه يسير إلى حتفه. لم يكن قادرا على أن يتصور إلى أي شيء سيُمسخ وجهها حين تعلم أنه غاب كل الثلاثي الأول ولم يسجل حضوره إلا في الامتحانات التي اجتازها، بشكل غريب، بامتياز.

أول شيء يذكره بعدها، تلك الصفعة التي لفحت بها خده بمجرد خروجها من مكتب المديرة، لكنه يذكر أيضا أنها لم تؤلمه بقدر ما آلمته نظراتها إليه. كانت مزيجا غير متجانس من الخيبة والصدمة واليأس والألم.

لم تنبس بشيء وهي تجره من أذنه إلى مكتب المديرة. كان

http://mzaj4.blogspot.com/

غرفة رحبة بخزانتين حديديتين وبمكتب خشبي واسع يتقدم مكتبة بعارضة زجاجية ورفوف حتى الأرض.

حين وقف بين يدي المديرة بادرتها أمه:

«ها هو ابن الكلب، اصنعي به ما شئت؟».

تصنّعت المديرة ابتسامة عريضة كشفت أسنانا بيضاء مثالية وأشارت إليه بالجلوس، أما أمه فضلت واقفة وكأنها تنتظر دعوة المديرة التي جلست بدورها دون أن تدعوها.

عمَّت لحظات صمت بدا فيها أن كل واحد من الثلاثة منشغلاً بشيء ما. هو بالأرض التي ينظر إليها متصنعا الخوف وأمه بما ستفعله المديرة أو تقرره، والمديرة بأمر لم تفضحه بشاشتها المبالغ فيها وعيناها الفارغتان.

«ليس هكذا سيدة ربيعي، فمهما يكن، حسان من أنجب تلاميذ المدرسة».

قالت المديرة وهي تجاهد أن تُبقي ابتسامتها على ذات الحدود التي بلغتها منذ حين. تنظر في كليهما موزعة نظراتها بين الأم وابنها. ربما كانت في ذلك تحاول أن تجد شبها ما بينهما: بين تلك المرأة الأنيقة ذات الجمال الأسمر المبهر، وذلك المسخ العملاق الجالس مطأطأ الرأس.

وقبل أن ترد أم حسان بأي شيء تداركت المديرة بصوت أكثر خفوتا: «أقصد آنسة ربيعي.. لطالما كان أمرا يصعب تذكره».

لم تعلق أمه واستمرت في صمتها. كانت تعلم ألا كلام يمكن أن يشرح وضعها، أم عازبة، فمهما يكن، صدر الحكم وانتهى.

«يمكننا أن نتغاضى عن تصرفاته وعبثه نظرا لوضعه الذي تعرفينه،

http://mzaj4.blogspot.com/

ولكن لا يجوز أن نسمح له بالعودة للدراسة دون أن يعاقب، لو فعلنا نفقد السيطرة على كل التلاميذ، فحسان كما تعلمين أكثر تلاميذنا شهرة على الإطلاق».

بالطبع لم تكن تقصد من ذلك غير خلقته الغريبة التي جعلته أشهر من علم. من يمكنه أن لا يلاحظ طفلا في المتر والسبعين بوجه قبيح، هلالي وطويل؟! حتى الأعمى كان ليشعر كلما مر بقربه في عز الظهيرة، بتلك الظلال التي يصنعها بسبب طول قامته.

هكذا تقرر أن يحتجز في قبو الابتدائية نصف يوم كامل. وكان القبو لمن في سنه، أو لمن هم أكبر منه – لا أحد يدري – أكثر الأماكن رعبا في كامل الابتدائية، حتى غدا تعبير المديرة «أقصى عقوبة» لا يعني إلا الاحتجاز في القبو.

لم تعارض أمه القرار، فهي التي فتحت شهية المديرة حين قالت لها «افعلي به ما شئت». والمديرة بطبعها الكريم لم تشأ أن تخيب ظن الأم الآنسة فيها، فحكمت عليه بما من شأنه أن يعيده إلى جادة الصواب. فقد كانت تعلم أن لا شيء أفضل من الظلام لإنارة بعض العقول.

لم يعد يذكر، الآن، بأية سلالم مر، ومن اقتاده إلى القبو ولا حتى من رأى وهو في طريقه إليه.

لم يعد يذكر إلا تلك الباب الحديدية ذات الصرير القوي وهي تفتح ثم توصد عليه.

ومثلما فعل منذ حين، لمَّا تحسس المكان ليبلغ مقاعد القطار، أخذ حسان ربيعي يحاول أن يعرف موضعه في القبو بيديه وقدميه، حتى بلغ زاوية ووقف ينتظر موعد انقضاء فترة العقوبة.

كان الهواء عفنا يعبق برطوبة نتنة وبشيء يشبه...

http://mzaj4.blogspot.com/

-5-

«أرأيت، رغم كل شيء ما زلت هنا».

زأر الصوت الغائر فيه من قريب.

أحسَّ حسان ربيعي بالذنب والغباء وهو يسمعه من جديد. فقد كان يـدرك أنـه مـن أذِن لـه بالظهـور مجـددا، حين سـمح لذكراه تلك أن ترتسـم في رأسـه. كان يعلم أنها ليسـت مجرد ذكرى يمكن لعقله المريض أن يستعيدها في أي وقت.

لقد كانت تلك الذكرى يوم ميلاد الصوت الغائر فيه.

بالطبع لم يكن يعلم وهو في العاشرة وقت كان منزويا في قبو الابتدائية أن شـيئا ما سـيحدث ويسـمح للصوت الغائر فيه بالظهور. كان عقلـه أصغـر مـن أن يـدرك الخطـر الذي داهمه، والذي سـيحوله مع سنين العمر إلى ما أصبح عليه.

أول ما سمعه كان هناك، في ذلك القبو النتن، الرطب، المقرف، الغارق في العتمة.

كان منزويـا ينتظـر عـودة أحدهـم ليفتح البـاب الحديدية. وبقدر ما جحظ عينيه ليرى أي خيال، بقدر ما ركز سمعه ليسمع أي خطو خلف الباب.

ظل مسـمرا حيث هو سـاعتين أو أكثر، وحين بدأ يشـعر، بفعل الجاذبية أو بفعل الإعياء، أنه لم يعد قادرا على الوقوف أكثر. وضع حقيبتـه علـى الأرض المبتلـة بالقرافة وجلـس عليها، وعيناه مصوبتان نحو الباب، كأنه يخشى أن يفلت خيال ما من دائرة البحلقة.

http://mzaj4.blogspot.com/

وظل ساعات أخرى جالسا حيث هو، حتى شعر بابتلال مؤخرته، بعد أن نفذ الماء من حقيبته.

وقف مرة أخرى.

كانت عيناه قد ألفتا الظلمة، فتمكن أخيرا من الإبصار.

وإذ ذاك، ميز درجا إسمنتيا في أول القبو بجانب الباب الحديدية، يرتفع عن الأرض بنصف متر. كان عريضا بما يكفي ليتمدد فوقه ويريح جسده المتيبس النحيل. وما كاد يفعل حتى أُطبق جفناه ونام.

حين استفاق لم يعلم كم من الوقت غاب عن الوعي، ولكنه كان متأكدا ألا أحد فتح الباب أو بحث عنه.

في تلك اللحظة قرر أن يقرع الباب ويصرخ حتى ينتبه إليه أحد. وحين فعل ولم يُستجب له، أدرك ألا خلاص له إلا بالانتظار وبالمزيد من الانتظار.

أدرك ذلك كما أدرك الآن وهو جالس في قطار كهربائي لا كهرباء فيه، أن العتمة كأي شيء آخر في هذا الوطن المظلم، يمكن أن تدجَّن. يكفي فقط أن تترك عينيك لتألفاها وتصبح قابلة للاختراق وللترويض أيضا.

فجأة صرخ الصوت الغائر فيه:

«أرأيت، لهذا تحب بولاتوفيتش. إنه مثلك: لا يؤمن، لا يصدق ولا يحلم. غير أنه على عكسك أيضا، لم يكن يخشى أن يخبر الناس بكرهه للوطن العاهر، وطن الخنازير. كان يصرخ غير آبه بمن يستمع إليه «لم يعد يهمني اسمك يا وطني، فهيا لنصفّي حساباتنا، خذ كل ما أعطيتني، خذ اسمي أولا وحررني من قدرك وظلامك». أما أنت فلا تجرؤ ولن تجرؤ أبدا حتى على سماع صوتك. لن تصرخ مثله

http://mzaj4.blogspot.com/

أبدا بكره «الوطن الإجباري»، هذا الذي ولدت فيه، لتموت وحسب».

هذه المرة، كان الصوت الغائر فيه أكثر قوة، حتى خُيل إليه أنه خرج من عقله وسمعه الجميع.

رفع رأسه مذعورا من هذا الاحتمال، فرأى الجميع ينظر نحوه. «أيعقل أنهم سمعوه؟!».

همس لنفسه وهو يعيد رأسه حيث كان بين يديه.

كان يعلم أنها مسألة وقت ويتمكن منه كما فعل ذات عام. لكن ليس الآن، فما دام يملك بعض الحيل، سيقاوم حتى النهاية.

رفع رأسه مرة أخرى، فاكتشف أن عينيه تكيَّفتا تماما مع الظلام حتى بات يرى بشكل كامل. جميع الوجوه بدت واضحة وكأنه يرى في وضح النهار.

كان جالسا في صالون رباعي المقاعد، يليه صالون مثله ثم مقاعد متفرقة تتقابل واحدا واحدا على الجانبين. كان هذا التشكيل يتكرر في كل عربة ثلاث مرات، لا تفصلها إلا مساحات الوقوف المقابلة للأبواب المتحركة أو المتر المربع الذي يشكل قاعدة الأكورديون الجامع بين كل عربتين.

وقف بسرعة منتهزا فرصة إبصاره الليلي المفاجئ، فقد أراد أن يعود إلى حيث كان واقفا بجانب الباب المتحركة حتى يرى ما يحدث خارجا. لم يعد كما كان منذ لحظات مجبرا على تحسس الطريق بيديه وقدميه.

سار بخطى ثابتة حتى بلغ مكان وقوفه الأول، وقبل أن يمحص النظر عبر زجاج الباب، شده منظر زوج من الشباب انزويا في آخر العربة. كانا فيما يبدو منسجمين للغاية: فتاة ذات جسد بريء ووجه

http://mzaj4.blogspot.com/

شاحب مكتنز وعينين حالمتين، وشاب يشبه «الإثم».

تنهد ونظر عبر زجاج الباب المتحركة. وإذ ذاك عاد النور من جديد.

في الصورة الكاملة، تلك التي لم يتمكن حسان ربيعي من أن يراها قبيل أن تعود أضواء النيون، الممتدة على طول السقف، وقبل أن يخرج القطار من العتمة. كان الشاب، الذي يشبه الإثم، يلف ذراعه اليمنى حول كتفي الفتاة، أما يسراه فكانت تداعب ما بين ساقيها. ولم تكن الفتاة ذات الجسد البريء والوجه الشاحب المكتنز والعينين الحالمتين إلا تلك التي نهضت منذ حين من مكانها تنظر شابا آخر شزرا.

حين عاد الضوء، تمكن حسان ربيعي من رؤية الصورة كاملة. لم يهتم كثيرا بما رآه من تفاصيل إيروتيكية عادة ما تشتت ذهن سواه، فقد أدرك منذ وقت طويل أن العفاف لا يحتاج، عادة، إلا لبعض الإقناع ليغير ثوبه. لا أحد يفهم هذه الحكمة أكثر منه وهو ابن أمه وكل الرجال. فمرة أخبرته والدته أنه ثمرة حب طائش، ومرة ثانية أنه نتيجة لحظة ضعف ملعونة، وثالثة أنه جاء إثر خطأ في الحساب. إلا أن النتيجة واحدة مهما كانت الأسباب: لقد ولد «ابن أمه وكل الرجال».

لهذا، لم يعبأ حسان ربيعي بما رآه من تفاصيل في الصورة الكاملة ولم يتشتت ذهنه واستمر ينظر عبر زجاج الباب المتحركة.

من مكانه رأى العتمة تزداد حلكة، وكأن الليل لا يكف عن إمدادها بالظلام. حينها أدرك أن الأمر سيطول أكثر، وأنه محتجز في القطار إلى حين.

هذه المرة لم يكن عاجزا تماما كأول مرة احتجز فيها في قبو ابتدائية «حسن بن مؤمن». حينها لم يكن له من خلاص إلا أن يأتي أحدهم ويفتح الباب الحديدية أو يقتلعها، حتى أنه حين كان ممددا

http://mzaj4.blogspot.com/

على درج الإسمنت العريض لم يفكر في البحث عن أي شيء يصلح لفتح الباب عنوة. ليس لأنه، وهو في العاشرة من العمر، لم يكن يملك في ذراعيه القوة اللازمة لذلك، بل لأنه أمل، ببلادة، أنه حتى وإن نسيته المديرة هناك فإن أمه ستبحث عنه بالضرورة.

وبالفعل تذكرته أمه ولكن.. بعد يومين.

فيهما حدث الشيء الكثير، وفيهما، أيضا، سمع الصوت الغائر فيه لأول مرة.

http://mzaj4.blogspot.com/

-6-

حين أقنع حسان ربيعي نفسه بأن الأمر سيطول أكثر، وبدأ يفكر في طريقة للخلاص. هتف صوت رجالي من مكبر الصوت:

«الرجاء من المسافرين على متن القطار التزام الهدوء إلى حين استئناف السير بعد حين».

هتف الجميع فرحين بالخبر، إلا ثلاثة بدت وجوههم عابسة وكأنهم خرجوا من عند موظف ضرائب: الفتاة ذات الجسد البريء والوجه الشاحب المكتنز والعينين الحالمتين، والشاب الذي يشبه «الإثم» وحسان ربيعي الذي جحظت عيناه الواسعتان بلا معنى وازدادتا غورا.

بالطبع، أي بليد كان ليدرك سبب عبوس الاثنين، ولكن لا أحد كان ليخمن سبب تلك الحيرة التي ارتسمت على وجه حسان ربيعي وهو واقف بجوار الباب المتحركة.

نظر حوله فرأى تلك السعادة التي طيَّرت معظم من كانوا في العربة، حتى يُخيَّل لمن ليس منهم أن أكبر مشاكلهم خطورة قد حُلت وأن أكثر مطالبهم إلحاحا لم تكن سوى عودة الضوء وقرار البدء في السير.

لم يدهشه الأمر، ما دام أنه فهم منذ وقت طويل كيف يفكر «الشعب المسلوب من كل شيء»، شعب «الوطن الإجباري». يفكر دوما في آخر شيء سلب منه وليس في كل ما فقده. وحين يسترده يتناسى، برضاه أو رغما عنه، بقية الأشياء. وكأنه اتفاق غير معلن بين

http://mzaj4.blogspot.com/

السالب والمسلوب: «لن نستغفلكم، ولكن لا تكونوا أذكياء».

منـذ حادثـة القبـو المشـؤومة، حيـن أدرك أن العالـم ليس مجرد حلم جميل أو حتى كابوس يمكن الاستيقاظ منه، أصبح يرى الأمور على غير ما تبدو عليه. لقد صار يؤمن بأن كل شيء يخفي خلفه شيئا آخر، حتى البراءة لا براءة فيها.

لذلك استوقفه إعلان سائق القطار من خلال المكبر. فقد تساءل، بخبـث أو ببـراءة «لا يهـم»، لمـاذا يطلـب من أناس هادئين أن يهدؤوا إن لم يكن ثمة من خطب؟!

خطر بباله أن يعود ويجلس حيث جلس منذ قليل. هكذا يمكنه أن يستريح ويفكر بشكل أفضل. وإذ ذاك انتبه لأمر غاية في الخطورة. «يا إلهي..».

صرخ فجأة وانطلق، دون إنذار، يعدو في اتجاه كابينة السائق.

شـدَّ صراخه انتباه بقية الركاب: مدَّ الجالسـون بعيدا عنه رقابهم ليروا ما يحدث، وقام أسـرعهم اسـتجابة ليشـهد المشـهد كاملا. أما الذيـن كانـوا أقـرب منه فتسـمروا في مواضعهـم ينتظرون حدوث أمر آخـر يجعلهـم يفهمون سـبب صراخـه وركضه هكذا. ولكنهم جميعا، فـي لحظـة اتفـاق لاشـعورية، انطلقـوا خلفه يركضـون، مثله، دون أن يعرفوا سببا محددا لركضهم.

كان يعدو والصوت الغائر فيه يضحك ويهمس له بشيء ما. غير أنه لم يهتم به هذه المرة، فلقد كان الأمر أخطر من أن يشغله عنه.

لو أنه أعار سمعه للصوت الغائر فيه، لفهم سبب ضحكه وهمسه. ولو أنه انتبه للراكضين خلفه من غير غاية لوافق الصوت الغائر فيه على ضحكاته وهمسـاته تلك، ولربما عادت إليه تلك الصورة التي تتكرر

http://mzaj4.blogspot.com/

كل مرة للشعب المسلوب من كل شيء. تلك التي يكون فيها يركض خلف أول الراكضين، حتى يظهر له راكض جديد فيركض خلفه. تلك الصورة التي بررت أن يصبح شعبا مسلوبا من كل شيء، حتى من رشده، فتراه يركض صباحا، يصيح: «ألجيري، حرة، ديمقراطية»(*). ثم يركض مساء صائحا: «عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله»(**). وتلك التي تجعل الرجل يلقي مواقفه كما يلقي أوقيته الذكورية كلما انتهى من الجماع. وحده «الشعب المسلوب من كل شيء» من لا يفهم منطق البوصلة، حتى لا يكاد يرى فارقا بين الصارخ في ضيق المعارضة: «pouvoir assassin»(***) والناصح في رحابة النظام بحب البلاد.

ولكنه لم يعره سمعه ولم يسع لفهم سبب ضحك وهمس الصوت الغائر فيه. لذلك لم ينتبه للراكضين خلفه من دون غاية إلا حين بلغ كابينة السائق في أول المقطورة.

وبشكل لا يد للمنطق فيه، كان الراكضون خلفه من غير غاية قد بلغوا الكابينة في نفس الوقت الذي بلغها فيه، حتى لم يعد ظاهرا من كان يقود «العَدْو» أول مرة. لكنهم وبمجرد أن بدأ حسان ربيعي بطرق باب الكابينة بشدة حتى تراجعوا إلى الخلف يترقبون ما سيحدث. لقد

(*) استعمل هذا الشعار أول مرة عام 1992 كشعار مناهض لشعار الجبهة الإسلامية للإنقاذ «الإسلام هو الحل» وبالتحديد إثر تعليق انتخابات ديسمبر1991.

(**) شعار الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ظهر خاصة أيام الإعلان عن العصيان المدني.

(***)شعار اعتمده المشككون في دور مريب للسلطات الجزائرية في المجازر التي حدثت في العشرية السوداء، اعتمده بوجه خاص مناضلو التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية. إلا أن الغريب أن بعض من صاح به في الشوارع استوزر لاحقا في النظام الذي اتهمه بقتل الشعب. الشعار بالفرنسية ويعني «نظام قاتل أو مجرم».

http://mzaj4.blogspot.com/

قرروا أن يكونوا مجرد شهود فحسب، ربما بعدها حين يتجلى الأمر وتفـك الطلاسـم ينخرطـون فـي قضية حسـان ربيعي. ولـمَ لا، يتبنونها ويدَّعون أنهم أصحاب الأمر أولا وأخيرا. سيمكثون كما فعل آباؤهم قبل عقود على الحدود، الشرقية أو الغربية «لا يهم»، ينتظرون من يغلب ومن يُغلب، ثم يزحفون بلا رحمة ويمسكون الغالب من خناقه(*).

وهـو يطـرق بقـوة، لاحـظ أن بـاب الكابينة ذات الزجاج المقاوم للكسر منيعة بشكل لا يصدق. فلم يكن بالإمكان اقتحامها أو قلعها أو فتحها إلا من الداخل. ومع ذلك استمر في قرع الباب والصراخ:

«افتح أيها الكلب، من حقنا أن نعرف الحقيقة.. افتح وإلا كسرنا الباب على رأسك».

انتبـه الـركاب لكلمـة «حقيقـة» التـي صـرخ بهـا حسـان ربيعـي فتحركت فيهم حاسـة «التقرعيج»(**) بشـكل أكثر وضوحا. فعادة لا تثار هذه الكلمة إلا للتقديم لما هو أخطر.

الجميـع يذكـر، ومـن لا يذكـر أخبـروه، حيـن قـرر «المخـرج المتذاكي» أن يتحدث عن خدعه أول مرة. كان ذلك صيف عام1988، ربما اعتقد حينها أن «الشعب المسلوب من كل شيء» قد بلغ الرشد ويمكنـه أن يـرى الحقيقـة مـن عيـن الكاميـرا دون أية خدعة أو حيلة إخراج(***).

(*) إشـارة إلى ما سـمي بجيش الشـرق وهو الجيـش الذي كان تحـت إمرة الرئيس الراحـل هـواري بومديـن، والـذي يتهمـه معارضـوه بأنـه لم يشـارك فـي الثورة التحريرية، مكتفيا بانتظار النصر ليسرق السلطة.

(**) الفضول.

(***) يفترض أن أحداث 5 أكتوبر 1988 في الجزائر مهدت لها مجموعة من الأحداث وقعت في تلك الصائفة بدأت بخبر الاختلاسات التي قام بها ابن الرئيس الأسبق الشاذلي بن جديد «توفيق» وانتهت بخطابه الشهير في 19 سبتمبر.

http://mzaj4.blogspot.com/

كان وحده، المخرج المحب للحقيقة، من اعتقد ذلك من طاقمه المحب للبلاد. ولكنه أصرّ وجهر برأيه في أن الشعب المسلوب في أمره لم يعد قاصرا وأنه كبر على مهده العملاق المسمى «الوطن الإجباري».

جهرا وافقه الجميع، وفي السر تساءلوا - عن معرفة أو عادة - «هل حقا كبر «الشعب المسلوب من كل شيء»؟».

لم يحتج الأمر أكثر من شهور قليلة ليجدوا الجواب حين ركض الشعب خلف أول راكض يهتفون مثله بالحرية ونهاية «الحقرة». ولكن الذي ركض أولا سرعان ما أدرك أنه حين ركض لم يركض رغبة في اللحاق بتلك العاهرة المسماة «حرية». لم يركض إلا لتتوقف الطوابير ولترخص السلع، وليجد كل مساء ما يقتات به. لم تكن الحرية شيئا فكر فيه أول مرة، ولم تكن هي ما فكر فيه الراكضون خلفه أيضا. ولكن الجميع، في باب الواد وباش جراح وبلكور، بعد نهبهم للأسواق وتخريبهم لكل ما هو قابل للتخريب، توقفوا لحظة ليلاحظوا راكضا جديدا يصيح باسم تلك العاهرة التي ركبها الجميع فركضوا خلفه. حتى لم يعد يهم، في النهاية، من ركض أولا، ما دام الأمر قد تأكد، حتى للمخرج المتذاكي، أن الشعب لم يرشد بعد. ولكن لا بأس أن يتوهم الرشاد.

وإذ انتبه الركاب لتلك الكلمة تراجعوا للخلف خطوة أو خطوتين، إلا أربعة تسمروا في أماكنهم ليشكّلوا، دون أن يشعروا، أول خط دفاع في حرب لا يعرف اسمها إلا حسان ربيعي الذي كان يحسب، لحد الآن، أنه الوحيد فيها.

لقد كانوا أربعة: رجلان، امرأة و.. مخنث.

http://mzaj4.blogspot.com/

-7-

لحظات قبل أن تنطفئ الأضواء، وبعد أن صدح مكبر الصوت بالخبر الجديد:

«نعلم المسافرين المتوجهين إلى محطة الجزائر، أن القطار سيتأخر عن موعد وصوله بوقت غير محدد».

انزوى شاب في منتصف العشرينات وانكمش على نفسه وتمتم بشيء جعل فتاة تجلس بجانبه تقوم من مقعدها وهي تنظره شزرا.

لم يجرؤ على أن يحتج أو أن يرفع رأسه واكتفى بالاستواء على مقعده.

أما هي فاستمرت في سيرها، حتى إذا بلغت مقاعد غير بعيدة لوَّحت بكفها لشاب أنيق الملبس كان يجلس بمفرده.

قبّلته وقبّلها على الخدين وجلست مشبكة يدها في يده.

«صحيح، لا خير في المخنثين».

قالت وهي تنظر صوبه وكأنها تأمل أن يعلق بشيء. لكنه لم ينبس بكلمة، مكتفيا بضغط كفها حتى تأوهت. وفي لحظة صمتا محدقين في بعضيهما.

أضافت بدلال:

«حسبت أنك تغار وأنا برفقة سواك».

ارتسمت على وجهه ابتسامة مغرور واثق من نفسه. وعوض أن يقول شيئا، رفع كفها التي كانت تحت كفه ووضعها فوق ذكره، وهمس لها وقد انحنى نحوها: «لم أغر لأنني واثق من

http://mzaj4.blogspot.com/

أنـه لا يملـك مثـل هـذا». وضغـط على يدهـا حتى كادت تحترق بنار فحولته.

حاولت أن تستنكر، فخلصت كفها. وما كادت تفعل حتى لف ذراعه حولها وهمس لها: «لا تخافي، أنت الآن بين أيد أمينة».

للحظة حاولت أن تخلِّص نفسـها من جديد، ولكنها سـرعان ما استسلمت وهي تتمتم برغبة وذبول: «أنت مهبول».

لم تنقض على وضعهما ثوان حتى أظلمت المقطورة، وتعالت أصـوات النـاس مسـتنكرين، فيما قـام بعضهم نحو الأبواب المتحركة لينظروا عبرها أملا في تجلي الأمر.

معظمهم قام إلا الشابين اللذين استحليا الوضع.

قال لها وهو يضمها إليه:

- أرأيت؟!.. حتى الله معنا.

ابتسـمت ودسـت جسـدها البريء في حضنه، ثم أعادت كفها، برضاها هذه المرة، حيث عضوه الذي وإن كان غير ظاهر بدأ يزعق ويحاول دفع ما فوقه من قماش.

ربمـا رأفـت بـه، حيـن أخـذت، بحشـمة، تفتح سـحَّابة سـرواله الجينـز بأصبعيـن دون أن تكـف عـن تفحص وجهه بعينيها الحالمتين، لتدخلهما، بغير حشمة هذه المرة، ويتحول وجه الشاب الأنيق الواثق من نفسه إلى ما يشبه «الإثم». ودون أن يشعر تحولت كفه التي كان يداعب بها وجهها الشاحب المكتنز إلى ما بين ساقيها.

- والآن، أينا أفضل؟

سأل الشاب ذو وجه الإثم دون أن يكف عن المداعبة.

- أنت.. أنت..

http://mzaj4.blogspot.com/

وقطع الشهيق صوتها الخافت حين شعرت بأصابعه تلامس فوق الملابس شفتي كسها، ثم تاهت وكأن أحدهم حلّق بها في السماء.

كم بقيا على هذا الوضع؟ لا يهم.

ما يهم حقا هو الشاب المنبوذ منذ لحظات، هذا الذي وصفته الفتاة ذات الجسد البريء والوجه الشاحب المكتنز والعينين الحالمتين بـ «المخنث».

فحين انحنى، قبل دقائق، على الفتاة وتمتم إليها: «صديقك مثير جدا ألا تعتقدين؟». كان قد أصدر قرار نفيه من قلبها وقضى على كل فرصة له في التعرف إليه بواسطتها.

كان المسكين يحسب أن شهور صداقتهما ستبرر أي شيء يتفوه به أمامها.

بالطبع لم يكن يمزح حين أشار إلى وسامته، ولكنه سيدعي لاحقا أنه مجرد مزاح، حتى يتمكن بعدها من التقرب إليه بعلمها أو من دونه.

كان هذا «أمين قرللُّو» أحد أكثر المخنثين شهرة في كل باش جراح. ولد وترعرع فيها حتى وظف في التلفزيون منشطا لإحدى حصص المنوعات. وكان قبلها قد اشتغل مهرج أطفال وممثلا على المسرح، ولعله بينهما كتب شيئا ونشره على الجرائد أو قرأه في مكان ما، على اعتبار أنه أديب أو شاعر.

لم تكن رحلته المهنية غريبة كما تبدو، ولعلها أقل غرابة من تلك الرحلات التي تبدأ من «قابض تذاكر» إلى رئيس حزب، أو تلك التي تنتهي بالراسب في الابتدائي وزيرا في الحكومة.

مهما كان وصف تلك الرحلة المهنية، فلن يكون أسخف مما

http://mzaj4.blogspot.com/

كان يرجوه أمين قرللو لنفسه في النهاية.

فحين دخل مقر التلفزيون أول مرة، استغرب من عدد الذين يشبهونه في كل شيء: حركات يديه، وقفته، مشيته، ضحكاته، غمزاته.. كل شيء.

أخيرا وجد جنّته التي أملها.. في الحقيقة وجد فردوسه الموعود.

لا يزال يذكر حين مط شفتيه وتنهد تلك التنهيدة التي تشبه الخلاص. وترك العنان لنفسه ليكون هو.

لقد وجد الوطن الذي لن ينتمي فيه للأقلية أبدا.

وبالفعل كان مبنى التلفزيون يشبه سيركا لغريبي الأطوار، حتى يخيل لمن لا يعمل فيه، أن من شروط التوظيف أن تكون مخنثا «سالبا أو موجبا» أو عاهرة أو سحاقية أو حتى مشروعا لهؤلاء جميعا.

بطبيعة الحال، احتراما للأقليات ربما، وظف بعض «الطبيعيين» أيضا، شريطة أن لا يتطلعوا إلى ما فوق رؤوسهم. فلا يعقل أن يدير السيرك شخص سوي.

كان أمين قرللّو سعيدا بوضعه الجديد، حتى أمل - وهو الذي تتوفر فيه كل الشروط - في أن يصبح ذات يوم سيد المبنى دون منازع. ولكن إلى ذلك الحين، كان عليه أن يثبت لكل مسؤوليه أنه مخنث بحق.

ورغم أنه وجد فردوسه الموعود، لم يكن قادرا على ألاّ يشتهي السمك الذي يسبح خارجا. لذلك لم يمنع نفسه من أن يخبر زميلته في المهنة عن اشتهائه لحبيبها الجديد. لم يكن يعتقد أن هذا الأمر سيزعجها ما دامت قد جربت معه وأحد عشاقها الجنس الثلاثي وأحبت ذلك. لذلك حين قامت منذ حين وتركته، لم يأسف لتركها

http://mzaj4.blogspot.com/

لـه ورفضهـا لاقتراحـه، بقـدر ما أسـف على نفاقهـا وعلى عدم قدرته على فضحه.

لـو أنـه فكـر مليـا فـي الأمر لما سـعد لتوظيفه فـي التلفزيون كل تلك السعادة، ولما انزعج من نفاق زميلته.. لو تدبر الأمر جيدا لتذكر تلك النكتة التي سمعها ذات يوم وأضحكته إلى درجة أنه ظل يرويها لغيره شهرا كاملا:

«قيل إن زعيما، ما، كان برفقة وزرائه الأوفياء في اجتماع حكومة. كان الأمـر خطيـرا بحيـث أمـر الزعيـم رئيس ديوانه بألا يزعجهم أحد فـي اجتماعهـم حـول تقسـيم ثـروات البـلاد، وبعـد أن نوقشـت كل الاقتراحـات، وجـد الزعيـم، كعادتـه، قسـمة عادلـة. قـال لهـم بحزم: سـتكون القسـمة كالتالي: النصف لي والربع.. أيضا لي، والثمن لكم والباقي للشعب.

وإذ كانوا يجرون القسمة بهذا الشكل دخل رئيس ديوان الزعيم وأخبـره أن عاهرتـه تنتظـر منـذ سـاعة. وحين أمـره الزعيم بأن يجعلها تنتظـر أكثـر، همـس إليـه رئيـس الديوان: «إنهـا تقول إن لم تخرج لها الآن فلن تغشـاها أبدا». ضحك الزعيم وأشـار إلى «القسـمة» وقال: وماذا تظنني أفعل مع الشعب منذ ساعة!..».

لو أنه تذكر هذه النكتة لما غضب كلما شـتمه أحدهم ولقبه بـ «النقش»(*). لم يكن الأبله وحيدا ومختلفا كما تصور دائما. كان كل «الشعب المسلوب من كل شيء» مثله. على الأقل كان هو يختار من يفعل فيه، على عكس «الشـعب المسـلوب من كل شـيء»، مرغم أن يكون مثله... أن يكون مختثا رغما عنه.

(*) المخنث.

http://mzaj4.blogspot.com/

-8-

«افتح أيها الكلب، من حقنا أن نعرف الحقيقة.. افتح وإلا كسرنا الباب على رأسك».

صرخ حسان ربيعي وهو يقرع باب كابينة السائق دون هوادة. لقد كان مقتنعا بأن ثمة شيئا مريبا يحاول السائق إخفاءه، وكان لا بد له من كشفه ليعرف كيف يتصرف.

ورغم أنه كان مشغولا بقرع الباب، إلا أن الصوت الغائر فيه ظل يهمس له وينبهه إلى الواقفين خلفه حتى سمعه أخيرا.

فجأة توقف عن القرع والتفت خلفه، فشاهد أربعة يتقدمهم شاب مهندم بشكل غريب.

تفحص وجهه وكامل جسده، فبدا كعجينة لم تستقر على جنس: وجه مركب، لا ذكر ولا أنثى، وجسد لولا الوجه لنسبه إلى فتاة مكتملة الأنوثة.

لم ينبس بكلمة ورمقهم بنظرة جعلتهم يندمون على شجاعتهم تلك التي جعلتهم لا يتراجعون كبقية الركاب منذ حين. لكنهم، رغم ذلك، ثبتوا وكأنهم اتفقوا دون أن يتفقوا حقيقة.

كانوا، بسبب طوله الفارع، ينظرون إليه رافعين رؤوسهم وقد امتدت رقابهم إلى أقصى حد وكأنهم ينظرون إلى السماء، باستثناء أنهم لم يجدوا شيئا جميلا في ما ينظرون إليه، وقد خلف وجهه الطويل المقرف في أنفسهم ما جعلهم، هذه المرة، يندمون على بقائهم في أماكنهم متسمّرين وكأنهم أول خط دفاع في حرب لا يعرف اسمها

http://mzaj4.blogspot.com/

إلا حسان ربيعي.

خلف أمين قرللو، وقف الثلاثة الباقون في خط مستوٍ وكأنهم في صلاة. وعلى عكس الرجلين اللذين تمنيا لو خلقا كفيفين حتى لا يريان وجه حسان الطويل، لم يبد على المرأة شيء من التقزز.

مع أنها كانت في الستين من العمر. إلا أن وجهها وتفاصيل جسدها جعلتها تبدو أقل عمرا. ولم تكن كالعجائز في مثل سنها ملتفة في أية لفافة ولا تضع على رأسها أي قماش، وكأنها تتفاخر بشعرها الأبيض المجموع إلى الخلف. كانت ترتدي طاقما صوفيا رمادي اللون ومعطفا طويلا بنيا من «الدان». أما الحذاء فكان أسود من لون حقيبة يدها الـ «شنيل».

قال أمين قرللو بصوته ذي الانعطافات الخافتة:

«اهدأ يا رجل واشرح لنا الأمر».

خرجت «يا رجل» من شفتيه بنغمة لو صدرت من شفتي امرأة لجثا حسان ربيعي على ركبتيه رغبة فيها. ولكنه حين سمعها منه شعر بوخز في بطنه حتى تلون وجه وازداد طولا.

حينها تشجع الرجلان ونطقا، في وقت واحد، بشيء لم يتبيَّنه حقيقة، ولكنه تظاهر بالفهم محركا رأسه ورافعا يديه.

وإذ ذاك جلس حسان ربيعي في أول مقعد على يساره بجوار باب كابينة السائق، فتقدمت المرأة ذات الستين وجلست بجواره، أما الرجلان وأمين قرللو ففضلوا البقاء في مواقعهم.

«يبدو أنك مرهق».

قالت ذلك بصوت أموميّ خافت.

http://mzaj4.blogspot.com/

حرك رأسه التي كانت بين يديه «أي نعم».

«مضت سنين طويلة يا حبيبي، أليس كذلك؟».

أضافت وكفها تمشط شعره الأسود الشوكي.

حينها رفع رأسه ونظر إليها صامتا. كانت عيناه الواسعتان بلا معنى تمشطان وجهها الأبيض المحمر. وحين أعياه البحث فيه دون جدوى، سألها: «تعرفينني؟».

كان من الطريف أنه لم يحدث أحدا طيلة اليوم إلا في مرتين، هذه المرة وتلك التي سأل فيها المرأة المتجلببة، ذات النقاب الأسود والعينين الحادتين. ولكنه الآن وهو يسأل كان أكثر رغبة في معرفة الجواب.

ابتسمت ثم أشارت إلى أمين قرللو ليجلس ففعل.

«هذا ولدي أمين.. تذكره أليس كذلك؟».

حرّك رأسه نافيا، مبقيا عينيه على المرأة وكأنه يستجديها لتجيب على سؤاله الأول.

«عالم صغير جدا هذه الحياة. لم أفكر أننا سنلتقي مرة أخرى ولكنها الصدف..».

وحين استقر أمين قرللو بجوارها، أضافت:

«أنظر إليَّ جيدا حسان، لا بد أن في وجهي شيئا يذكرك بي».

ثم التفتت إلى أمين قرللو، طابعة على وجهها ابتسامة أقل أمومة: «وأنت ألا تذكر حسان. كنت طفلا وقتها كثير الشقاوة. وحده حسان من كان يخيفك فتلزم فراشك وتنام بمجرد أن تراه..».

حينها ضحكت بجنون ووضعت يدها على فمها وكأنها تتجشأ.

«يا إلهي كم كانت جميلة تلك الأيام.. المسكين كلما رآك تدخل

http://mzaj4.blogspot.com/

البيت جاءني مهرولا، يكاد يقتله الخوف «ماما.. ماما.. بولولو.. ماما غول..»، ويدسّ رأسه في حضني. ثم أغمزك فتصرخ فيه: إلى الفراش، فيقفز من حضني إلى سريره، ولا ينقضي ربع ساعة حتى يغرق في النوم».

بدت تلك الذكريات مألوفة له وغريبة في آن واحد.

فكّر في أن يسألها من تكون ولكنها استرسلت:

«أرأيت كم الصدف جميلة؟.. كنت عند أختي غنية ببرغولا، تذكرها بالطبع، خالتك غنية صديقة أمك. كانت هي من عرفتني بأمك أيام محنتك تلك، ولم أنتبه أننا تجاوزنا المغيب. دعتني للمبيت عندها ولكنني كما تعرفني ركبت رأسي وخرجت لأستقل الحافلة، ولكن كما تعرف هذه بلاد تغلق أبوابها مع المغيب، لا حافلة ولا سيارة أجرة ولا هم يحزنون. بلاد الزبل حاشاك..

المهم حين لم أجد ما أستقله فكرت بالقطار، قلت يوصلني حتى الحراش ومن هناك أستأجر سيارة أجرة وفي أسوأ الأحوال أسير على قدمي، مختصرة الطريق عبر بيلام وجنان مبروك. لن يستغرق الأمر أكثر من عشرين دقيقة، فكما ترى ادخرت بعض الصحة من شبابي. ولكن الصدف مرة أخرى جعلتني ألتقي بأمين.. أتصدق لم أره منذ شهرين. أصبح لا يزورني إلا في الأعياد منذ اكترى شقة ببولوغين. هكذا قررت أن أبيت عنده وهكذا جمعتنا الصدف..».

حين ذكرت أختها غنية، تشكلت في رأسه صورة ما. ثم تشكلت صورة أخرى حين ذكرت باش جراح، وحين ركَّب الصورتين مع صورة المرأة التي تحدثه، قفزت إلى ذهنه ذكرى قديمة لصيقة بذكرى القبو المقرف.

«يا إلهي.. أتكونين..».

http://mzaj4.blogspot.com/

وقاطعه الصوت الغائر فيه: «بالطبع هي يا غبي».

«أنت الأستاذة نايت سعيدي».

«خالتك لويزة».

«كنت محامية أمي».

«محاميتك أنت».

«يا إلهي..».

«أرأيت كم الصدف غريبة. قل لي: كيف هي أمك؟ سألت عنها غنية فأخبرتني أنها لم تعد تعرف عنها شيئا».

«أمي؟!..».

حينها، قام أمين قرللو مستأذنا فشيعته أمه بعينيها حتى بلغ مكان الفتاة ذات الجسد البريء والشاب الذي يشبه الإثم. صافح كليهما وجلس قبالتهما. رحبا به على غير المنتظر والفتاة تقول ضاحكة:

«حبيبي أعجبته الفكرة ويريد أن يعرف متى تدعونا إلى شقتك».

http://mzaj4.blogspot.com/

-9-

بانسحاب أمين قرللو، لم يبق من خط الدفاع الأول إلا ثلاثة: خالتي لويزة والرجلان الواقفان بالجوار.

قال الرجل الأول لرفيقه: دنيا مجنونة بحق.

«والله ما تفهم والو»(*).

«المهم أن الرجل هدأ والحمد لله».

«الحمد لله، ولكن ما الذي جعله يثور هكذا؟».

«لا أعلم.. ربما يكون رجلا مريضا في عقله».

«ربما، على الأقل لا يمكن لرجل يملك كل عقله أن يثور ويهدأ دون سبب».

«صحيح». وحرك رأسه وكأنه يشير إلى رفيقه بالمغادرة.

وإذ هما يهمان بالسير قال الرجل الثاني:

«أرأيت وجها بشعا كوجهه.. والله لم أكن قادرا على النظر إليه».

«لا والله، يبدو أنه تعرض لحادث ما في شبابه».

«ربما.. ربما».

«أو..». وابتسم كاتما ضحكة مباغتة.

«سامحني الله ولكنه يملك وجها يشبه وجه الكلب».

«تقصد وجه السلوقي».

«استغفر الله ولكنه..». وكتم ضحكة أخرى.

(*) والو: لا شيء.

http://mzaj4.blogspot.com/

«كأنه كان غائبا يوم وزع الله الحسن على عباده».

ضحك الرجل الآخر وأضاف: «لعله كان في آخر الصف».

بانصرافهما، عاد المرابطون خلفهما إلى مقاعدهم وإلى ما كانوا عليه قبل دقائق، وبانصرافهما أيضا حُلّ خط الدفاع الأول إلى الأبد، ولم يعد يصلح «حسان ربيعي» الذي كان قبل دقائق فقط زعيما يركض خلفه الجميع، إلا علاقة نكت سافلة وحقيرة. تماما كما يحدث في كل مرة للمخرج المتذاكي كلما غادر أو أجبر على المغادرة.

قالت خالتي لويزة:

«نعم أمك، كيف حالها؟».

تأمل حسان ربيعي وجهها الأمومي وعينيها الدافئتين. الآن تذكر من تكون.

«خالتي لويزة.. بالطبع.. بالطبع».

«الآن تذكرتني يا ستوت».

قالت وهي تربت على فخذه.

«كأن الزمن توقف عندك، لم تتغيري في شيء».

ابتسمت بحنان.

«كأن البارحة آخر مرة رأيتك فيها».

«ومع هذا مرت ثلاثون سنة وكأنها الريح». قالت ذلك بأسى وأضافت:

«أنت أيضا لم تتغير، باستثناء...».

ورمقته بنظرة إعجاب. أو بنظرة تشبه الإعجاب، فلم يكن فيه، وهو يعلم هذا جيدا، ما يعجب. ولكن نظرتها تلك، بدت وكأنها تحاول الوصول إلى ما أبعد من جسده الفارع المتيبس النحيل ووجهه

http://mzaj4.blogspot.com/

السلوقي الطويل.

«باستثناء أنك صرت أطول. وعلى ما يبدو فقد تزوجت».

وداعبت خاتما فضيا ببنصره الأيسر.

«صحيح تزوجت..».

قال ذلك بأسى أكبر من أساها حين ذكرت الثلاثين عاما.

«ومن سعيدة الحظ؟».

هنا همس له الصوت الغائر فيه ساخرا: «إنها تقصد حتما: سيئة الحظ زوجتك».

لا يعرف لمَ شعر وهي تسأله هذا السؤال أنها تنظر إلى كفيه وقدميه. ولكنه سرعان ما استغفر وتجاهل الصوت الغائر فيه.

«فتاة عرفتها هكذا».

قال وهو يتذكر قصة تعارفهما ولكنه لم يتذكر شيئا. كل ما تذكره كان يوم عقد عليها من دون عرس.

يومها قالت له بحزم:

«الآن يمكنك أن تدخل بي. أنا امرأة مطلقة لا أحتاج إلى وليّ وأنت رجل راشد لا تحتاج إلى أحد».

لم تمهله ليعلق بشيء. سحبته من ذراعه ودعته ليسير.

حدث هذا منذ عشرة أعوام. ما زال يذكر اليوم جيدا التاسع عشر من سبتمبر عام ألفين. يذكره، لأنه هو التاريخ المدون في عقد الزواج.

في طريقهما إلى منزل أمها، حيث أقاما سنة ونصف السنة. عاودته شجاعته وسألها:

«أخبريني عن السبب».

«أي سبب؟».

http://mzaj4.blogspot.com/

«في عدم رغبتك في العرس».

«أفكر في المستقبل يا غبي، ما حاجتنا إلى عرس لا نجني منه إلا التعب والدين».

فـي نفـس الليلـة بعـد أن دخـل بها، خـرج إلى الحمام ونظر إلى وجهه في المرآة.

سأل نفسه ببؤس:

«ألم أكن أستحق عرسا كأقراني».

أجابه الصوت الغائر فيه:

«بالطبع تستحق، ولكن يوم جنازتك». ثم أضاف:

«هـي أيضـا تسـتحق أن تسـتر عارهـا. مـاذا يقـول النـاس: امرأة تزوجت كلبا».

وضحك حتى خال ضحكه وصل غرفة نومهما.

لحظتها قرر أن يسكته، فوضع رأسه تحت الماء، وما كاد يفعل حتى سمع زوجته تناديه:

«عد يا كلب، ما زلت لم أبدأ بعد».

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الثاني

ماذا لو توقف اللّه عن البكاء

«متى يتوقف الله عن البكاء؟».

«آه عليك أيها المجنون، هل يبكي الله؟».

«نعم يبكي، ألا ترين السماء وكل هذا المطر؟.. لا بد أنه حزين جدا؟».

ضحكت بصدق وهي تجلسه على حجرها.

مشّطت شعره بكفها وانحنت عليه وكأنها تهمس في أذنه:

«الله لا يبكي ولا يحزن أبدا. نحن فقط من يفعل ذلك».

«لا يبكي أبدا».

«أبدا».

طأطأ رأسه يفكر.

«حتى..».

تردد مثل من يبحث في طرف لسانه عن بقية كلام.

«حتى حين يضربه والده؟».

ضحكت مرة أخرى وهي تقبل رأسه بمتعة.

«لا يا مجنون.. لا يملك الله أبا حتى يضربه».

حينها رفع رأسه، مبحلقا في وجهها. بدت حدقتاه تبرقان، تائهتين في عينيه.

حين رأت تلك النظرة، أدركت فداحة ما تفوهت به. لكنها قبل

http://mzaj4.blogspot.com/

أن تجد كلمة تغير بها مجرى الحديث باغتها:

«مثلي أنا.. الله مثلي أنا، لا أب له».

ثم ضاقت عيناه وانطفأتا، وكأنه دون أن يشعر أو دون أن تشعر هي، فقد شيئا من براءته. فقد قال ذلك بصوت يائس مضطرب، غارق في الحزن.

* * *

كلما أمطرت تذكرت ذلك، وكأن حياتها بطولها وعرضها لم تعن لها أكثر من تلك الساعة التي جمعتهما عام 1974.

في تلك اللحظة، حين عاودتها الذكرى، كانت واقفة عند الجسر المقابل لحديقة السكوار في الطرف الآخر من الطريق. كان المطر يشتد كل لحظة، حتى انقرض الراجلون على الجهة التي تقف فيها، ولم يبقَ إلاها بمعطفها الكاوي الأزرق الشبيه بمعاطف الشرطة ومطريتها السوداء قصيرة اليد وحقيبة كتفها الكبيرة المنتفخة ذات الحلقات المعدنية.

فمنذ دقائق اشتد المطر دون أن يبدو أنه راغب في أن يخف. كان ينهمر وكأن دلاء من السماء تقلب تباعا، فيصفع الأرض المبلطة حيث تقف. ولم تمض دقائق منذ وقوفها حتى ابتلت العاصمة من طرفها إلى طرفها. غزا الماء متقدما بالعرض الطريق التي تفصلها عن الحديقة، وحين بلغ مداه أخذ يعلو ويعلو حتى خلف تلك الطريق بحيرة لا سمك ولا طير فيها. بالكاد استمرت السيارات في السير والماء قد بلغ عتبات أبوابها وغمر الأرصفة المرتفعة بعد أن ثملت البالوعات ذات المصارف القديمة والضيقة.

حيث كانت تقف، كان الماء قد ضم الرصيف معانقا ثم مبتلعا

http://mzaj4.blogspot.com/

له، حتى كاد أن يبلغ كعبها لولا مصارف الجسر المرتكزة على قناطر السكوار ذات المداخل الآجورية التي كانت تدفع الماء إلى أسفل، ليستقر في طريق آخر يغرقه بدوره.

أي بليد كان ليسأل نفسه: «لماذا تقف تلك العجوز هناك؟».

وبالفعل كانت عجوزا. فحين رفعت رأسها تنظر إلى السماء الملبدة وأضواء السيارات المصطفة تضرب فيها، ظهر وجهها المترهل ذو النمش الدموي والتجاعيد المقوسة المنتشرة على كامل مساحته.

ومع ذلك، ما كان لأضواء السيارات المصطفة أن تقدر بمفردها على فضح سن تلك المرأة ذات الخمسة والستين لولا تواطؤ الماء الساقط من السماء، حين تجرأ ومحا ماكياجها الموضوع بعناية وبشكل أعاد العجوز، غالبا كما رغبت، إلى عتبة الأربعين.

ومثلما فضحها الماء الهاطل من السماء، كشفت العاصمة عن وجهها الذميم، المترهل العجوز، ولكنه على عكس وجه المرأة كان أكثر قبحا وأقل مفاجأة. لم يكن ليحتاج لأضواء السيارات المصطفة ولا حتى لكل أضواء الدنيا ليكشف سره. كان يكفي رذاذ مطر تافه ليمسح ماكياجها الموضوع بغير عناية. تكفي قطرات ماء فقط لتغرق وتنعزل عن الحضارة: تقطع الطرقات وتتوقف السيارات وتنقطع الكهرباء وتغلق كل المحلات وكأن العاصمة مدينة تحت القصف. كأنها مجرد وهم كالذي يعيشه كل يوم ولمدة ثماني ساعات الراجلون العائدون إلى حيث أتوا.

«لماذا تقف هناك؟»..

لا أحد يدري، حتى هي لا تعلم.

ربما هي العادة فقط ما جعلتها كلما عادت من عملها اليومي

http://mzaj4.blogspot.com/

إلى سكنها المقرف في سنتوجان تسلك نفس الطريق التي تسلكها كل يوم، لتجد نفسها واقفة في ذات المكان من الجسر وتطل منه على ما ليس، في الحقيقة، منظرا يصنع الإدمان.

كانت تقف هناك فحسب: تنظر إلى الراجلين على اختلاف وجهاتهم وهم ينزلون السلالم المتاخمة للقناطر قاصدين محطة الجزائر أو منتظرين بموقف الحافلات المتوجهة إلى الجهة الشرقية من العاصمة، أو متجهين إلى ساحة الشهداء على الجهة البحرية. وحين تملّ، تمد بصرها إلى الميناء ببواخره ورافعاته الضخمة وحاوياته المتوزعة على أطرافه بشكل عشوائي، ومنها إلى البحر الممتد إلى حيث لا يصل بصرها.

ولسبب ما، كان هذا المنظر، رغم لاجاذبيته، يبعث في روحها طمأنينة من نوع خاص.

إلا أنها الآن وهي واقفة هناك لم تشعر بتلك الراحة التي عادة ما تشعر بها كلما أطلت من الجسر. فالمطر الساقط من السماء كسر جناحيها وأظلم عينيها وهي تتذكر سؤال طفلها البريء «متى يتوقف الله عن البكاء؟».

فجأة، وكما يحدث غالبا في الروايات، شعرت بلسعة برد.

نظرت إلى نفسها فأدركت أن ذراعيها تراختا حتى سهت يُسراها عن حمل المطرية السوداء كما ينبغي، وتناست يمناها سيجارة الغلواز التي أشعلتها منذ ثوان فقط قبل أن تباغتها الذكرى اللعينة.

دققت في نفسها أكثر، فهالها البلل الذي أصابها، نافذا إلى أكثر ملابسها حميمية.

ربما وهي تفحص نفسها شعرت بنفس الشعور الذي يشعر به

http://mzaj4.blogspot.com/

أناس على بعد أمتار منها فقط، هؤلاء الذين كلما بكى الله أو سعل، بكوا لبكائه وسعلوا مثله. هؤلاء الذين في كل مرة تعود فيها مساء إلى سكنها تتحاشى المرور بهم، فلا تكاد تبلغ البريد المركزي حتى تقطع الطريق في ناحية حديقة صوفيا، حيث لا أقواس ولا عنابر ولا قناطر تمنحهم فسحة من الأرض ينامون أو يستلقون فيها. ولكنها من على رصيفها الممتد من شارع الأرجنتين إلى مشارف ساحة الشهداء كانت تراهم حين يبدأ الليل في نفخ ظلاله يحملون بين أحضانهم وأيديهم وعلى ظهورهم فُرشهم من الكارتون والقماش البالي ويفترشونه كيفما كان. في البداية يكومونه فوق بعض، حتى إذا اطمأنوا لضَمَّة الليل وانقراض الراجلين، افترشوه واستلقوا عليه.

لقد كانوا من كل جنس ومن كل عمر ومن كل لون، فرادى وعائلات.

ربما شعرت بذات الشعور، ولكنها وعلى خلافهم كانت تملك مكانا تنصرف إليه. لذلك حين رأت ما أصابها من بلل، أدركت أن الوقت حان للانصراف: إلى سكنها مثلما ترغب هي، أو إلى القبر مثلما يريد لها البلل.

وإذ ذاك، فكرت لو تستغني عن السير هذه المرة وتستقل سيارة أجرة أسفل السلالم. ترددت قليلا ولكنها حين همت بفتح المطرية من جديد واكتشفت أنها معطوبة، حسمت أمرها وقررت أن تستقل سيارة أجرة.

ألقت بالمطرية المعطوبة جانبا وتقدمت نحو السلم.

أحست بالماء وقد تسرب إلى حذائها وجواربها الصوفية، وحين تفحصته دون أن تنحني أو تتوقف رأت شرخا بحذائها.

لم تحزن واستمرت في السير، فلم يكن إلا حذاء صينيا رخيصا

http://mzaj4.blogspot.com/

اقتنته منذ أسبوع من الروتشار، أين ينشر الباعة سلعهم على الأرض، يبيعون أي شيء وكل شيء، ولكن بأسعار أقل من تلك المعروضة بالمحلات، والتي وإن غلت فلم تكن أجود من السلع الصينية أو سلع الورش غير الشرعية المنتشرة في القصبة وباب الواد والشرابة.

حين بلغت بداية السلم وأرادت أن تضع قدمها اليمنى على أول درج تعثرت بشيء ما.

تعالت الأصوات «يا ستار». لم تشأ أن تستدير، فقد كانت تعرف مصدرها، ولكنها وهي تهم بالنظر في أي شيء تعثرت زادت حدة الأصوات فابتسمت دون أن تلتفت.

كان سائقو السيارات المصطفة والعالقون في الطريق يغازلونها وفي ظنهم أنها فتاة شابة. فقد كانت المرأة العجوز تملك جسدا مستقيما وقامة معتدلة، ولم يكن فيها ما يتدلى من خلف أو أمام، وكأن الطبيعة حين عبثت بوجهها صفحت عن جسدها المثير، حتى يُخيل إليك لو وضعت كيسا أسود على رأسها ونزعت عنها معطفها الكاوي وبقية ملابسها أنك تنظر في امرأة بالكاد صافحت الثلاثين.

لهذا ابتسمت وقد غمرتها السعادة بالاهتمام. تماما كما اعتادت أن تغمرها حين تخرج من مرحاض سوق كلوزال المغطى ويبدأ صاحبه في مغازلتها:

«تبدين جميلة هذا اليوم».

«لا عليك.. أجرة الدخول مدفوعة حين رأيتك».

«أخبريني كيف تزدادين جمالا يوما بعد يوم».

تبتسم وتنصرف. ولعلها رحمة به تقول له «شكرا». ثم تتركه غارقا في أحلامه الإيروتيكية برأسه الصلعاء ووجهه الشبيه بالمرحاض

http://mzaj4.blogspot.com/

الذي يعمل فيه.

لـم تكـن المـرأة العجـوز لتخمن، حيـن نظرت قدامها لترى فيما تعثـرت، أن قدمهـا اصطدمـت بطفـل منكمـش في طـرف الدرج. كان جالسا، ضاما ساقيه إليه وقد جعل رأسه بين ذراعيه وركبتيه.

تأملته لحظة وهو غير آبه بها وكأنه لم يشعر بقدمها اليمنى تضرب خاصرته، فلسعتها رائحة الغراء المنبعثة منه.

كان هذا واحدا من أطفال الانتشـاء، هؤلاء الذين لا تراهم إلا حين يجن الليل يجوبون شـوارع العاصمة دون أن يهدؤوا، حتى إذا طلعت الشـمس اختفوا وكأنهم لم يكونوا قط. ولكنهم منذ سـنة أو سـنتين أصبحـوا يتجـرؤون علـى الخـروج فـي وضح النهـار، حاملين أوعيتهـم المليئـة بالغـراء، يسـمونه «اللصقة»، يستنشـقونها على مرأى الجميع. رائحتها تجعلهم يغيبون عن الوعي وربما تجعلهم يسرحون في وطن آخر غير «الوطن الإجباري»، هذا الذي لم يضمن لهم غير الولادة والموت. وحين يصيبون بعض الرزق يشـترون بعض الكيف أو يصنعون «الزنمبريطو» بمزج القليل من الكحول الطبي والكثير من المياه الغازية السوداء، فيحتسونه رافعين نخب «الوطن الإجباري».

لم يفاجئها الأمر ولم يحزنها حتى، ما دامت قد أبقت، في تلك اللحظة، على بسمتها التي ارتسمت قبل قليل.

وحين بلغت أسـفل السـلم، تلاشـت بسـمتها وطأطأت رأسـها محدقـة إلـى الأرض، ثـم دخلـت مقهـى يقف بجوارها وعند واجهتها رجال يلوكون الحديث، يدخنون بشراهة وحقد. جميعهم حدّق فيها، إلا رجلا كهلا كان واقفا خلف الكنتوار بجانب الصندوق.

ولكنه ما أن انتبه لوجودها حتى تبشش ومد إليها يديه، فسلمته حقيبـة كتفهـا الكبيـرة ذات الحلقـات المعدنيـة وطلبـت كـوب حليب

http://mzaj4.blogspot.com/

أخذت تشرب منه كما ترتشف فنجان قهوة. أما هو فقد خفَّض كتفيه، واضعا حقيبتها بجانب صندوقه بشكل يستحيل على غيره أن يراه.. ثم انشغل بأمر ما.

لم تمض دقيقة حتى أنهت شرب حليبها واستعادت حقيبتها ثم خرجت من المقهى من غير أن تدفع الحساب.

شيعتها إلى الطريق المقابلة، حيث يقع المعبر الأرضي الموصل إلى محطة الجزائر، عيون الرجال المحدقين فيها حتى اختفت من شاشات إبصارهم وهي تدخل المعبر برشاقة وخفة لا تليقان بعجوز في الخامسة والستين.

لم تشعر بنفسها حتى بلغت أسفل المعبر وفي نَفَسها بعض اللهاث.

وإذ ذاك عاودها الابتسام، فاستعاد وجهها الأسمر لونه وارتخى ساعدها الذي كان يضغط على حقيبتها ذات الحلقات المعدنية.

تأففت وهي تنصت لقلبها يستعيد دقاته بغير تسارع، وحين عاد إلى ريتمه المعهود زفرت بشدة وتمتمت «الحمد لله».

«لم يحدث شيء.. لقد نجت»..

بهذه الجملة كان سينتهي كاتب يومياتها، وبها كانت ستُعَنون قصة نزولها معبر السكوار كلما اضطرت إلى عبوره ليلا. ففي مساء كل يوم حين تقفل محلات السردين والكبد المشرملة المتواجدة فيه، وتطفأ الأنوار داخلها وخارجها، يتحول المعبر إلى نزل رخيص بغير غرف، يرتاده عمُّار الليل على اختلافهم: المجانين، اللصوص، المسطولون، العاهرات، المخنثون، اللوطيون، القوادون، أطفال الانتشاء...

وبين هؤلاء جميعا كانت تمر كلما اضطرت إلى نزول المعبر.

http://mzaj4.blogspot.com/

لهذا حين بلغت أسفله استعادت لونها وحمدت الله على الخلاص.

«الخلاص»!..

كلمة غريبة لو فكرت فيها. وشعور لم تشعر به إطلاقا. عدا تلك المرة في عام 1982 حين خُيِّل إليها أنها ذاهبة إليه وهي تغلق باب شقتها المستأجرة بعناية وهدوء. ولفرط ما خشيت أن تصدر أي صوت، قامت من فراشها الثالثة صباحا ووضعت بعض الزيت على زلاجتيها وجربتها فلم تصر.

ومع ذلك حين همت بالخروج فجرا لم تطمئن إلى تجربتها وتمهلت في غلق الباب. كانت تخشى أن يستفيق فجأة ويجعلها تراجع قرارها من جديد.

ربما لهذا حين أطعمته آخر مرة لم تنس أن تضع القليل من المنوم في أكله. هكذا تضمن صرعه حتى وإن فعلتها الباب وصرّت على حين غرة. لم يكن الوضع يقبل أية مفاجئة تضطرها إلى تأجيل ما عزمت عليه. لقد اتخذت قرارها وانتهى الأمر.

ولكنها ما إن أغلقت الباب، دون أن تحدث أي صوت، شعرت برغبة ملحة في النظر إليه آخر مرة. ولكن إلام ستنظر في الحقيقة: إلى الطفل النائم المطمئن لوجود أمه في الجوار، أم إلى الخطأ الذي لا يمر يوم إلا وزاد كبرا، أم إلى أكثر آثامها قرافة؟

فكرت بالأمر جيدا، ونزلت سلم العمارة حاجبة عقلها عن التفكير.

وعلى عكس ما تصورته، فلم تجد الخلاص منتظرا حين بلغت مدخل العمارة، ولم تجده وهي تسير في نهج فيكتور هيغو متجهة إلى ساحة أول ماي، ولم تجده لاحقا أيضا، رغم أنها ابتعدت قدر

http://mzaj4.blogspot.com/

ما تستطيع عنه. ومع مرور السنين أدركت أن خلاصها لم يكن خارج البـاب التـي منعتهـا مـن أن تصـرّ. كان ببسـاطة نائما حيث كان طفلها نائما أو مصروعا بحبات المنوم.

ومع هذا شـعرت بشـيء يشـبه الخلاص وهي أسـفل المعبر وقد استعاد قلبها هدوءه ووجهها بسمته المؤقتة، ولكنها سرعان ما جفلت حين انقطعت الكهرباء فجأة وغرقت العاصمة في ظلمة أخرى، أكثر عتمة مما فرضه الليل عليها والسحب الملبدة في السماء.

أحسـت ببعـض الضيـق وهـي تـدرك أن قطـع الطريق إلى الجهة المقابلة لمحطة الحافلات سيتطلب وقتا أطول، ليس لأن الظلمة التي أغرقت العاصمة تخبئ شـيئا تخشـاه، أو لأن الطريق ليسـت آمنة، بل لأن المطر السـاقط من السـماء يزداد شـدة وليس في الجهة المقابلة ما تحتمي تحته.

هكذا قررت أن تسير قدما صوب محطة القطار، أين يمكنها أن تجلـس فـي البهـو إلـى حيـن تعود الكهرباء، ولعلها تجد عند كشـكيْ التبغ فيها مطرية تقتنيها.

المسـكينة لم تكن تعلم وهي تسـير صوب المحطة أنها تسـعى إلى ما هو أكثر من رغبة تافهة في الجفاف والأمن. لقد كانت تسير، دون أن تدرك، نحو ما فرت منه حين قررت ذات يوم أن تفتح الباب التي لم تصر، بحثا عن.. الخلاص.

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الثالث

العشاء الأخير

-1-

حين همّ حسان ربيعي بأن يروي على خالتي لويزة قصة زواجه التعيسة، صرَّت باب كابينة السائق. ليخرج منها رجل في الخمسين، ذو استقامة ونحول معتدل، بشارب أشيب وشعر رمادي كثيف ممشط إلى خلف. بدا أنيقا بما يسمح له أجره الشهري السخيف والمضحك في آن واحد. فقبل أشهر فقط، أضرب عمال الشيمينو مرتين على التوالي: مرة من أجل تحسين رواتبهم الشبيهة بأجور مساحي الأحذية، ومرة ثانية للمطالبة بتنفيذ وعود الحكومة بتحسين تلك الرواتب إثر الإضراب الأول، والذي انتهى أيضا بوعود أخرى للنظر في الوعود الأولى.

لا أحد من الركاب اهتم به وهو يخرج بتوجس وببطء.

تفحص السائق حسان بعينين صارمتين، مصطنعا غلظة لم تتوافق وصوته الآيل للخفوت:

«من تحسب نفسك حتى تقرع الباب هكذا؟».

صرخ متقدما خطوة نحو حسان الذي كان جالسا، ومع هذا فقد بديا في نفس العلو.

لم يشأ حسان ربيعي أن يؤزِّم الوضع أكثر، ولو شاء لاكتفى بالوقوف فقط ليضع السائق المستغلظ أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يصعد على أحد المقاعد ليحدثه بالتساوي وإما أن يعود إلى

http://mzaj4.blogspot.com/

كابينته الآمنة والمحصنة.

قال بلطف جاف:

«كان عليك أن تحترم الناس وتخبرهم بالحقيقة».

وقعت كلمة «الحقيقة» في أذن خالتي لويزة بحيث رفعت رأسها أكثر، تحدق في السائق الذي بدا مندهشا:

«حقيقة؟!».

«نعم، أم تحسب أنك تسوق بخرفان لا تهمها في أية مذبحة تنحر؟!».

ارتبك السائق ارتباك من اكتشف أنه يحدث سلفيا بمنطق محمد أركون. تراخت نظرته وتجمَّدت حدقتاه في عينيه وكأنهما شلتا.

قال بصوت خافت متراجع، بعد أن اقتلع من وجهه قناع الرجل الحازم:

«لا بأس عليك أخي، ربما هو سوء تفاهم فحسب».

«سوء تفاهم؟!».

«أكيد، فلا أظنني اقترفت أمرا يستحق كل هذا الغضب».

لاحظ حسان ربيعي على السائق وهو يتحدث أنه يحدق في عينيه دون أن يجفل. بدا صادقا إلى درجة أن همس له الصوت الغائر فيه: «لعلها وساوسك ما جعلتك تتوهم».

فكر قليلا قبل أن يقول بملل:

«ربما.. ربما».

وإذ ذاك، تحركت حدقتا السائق وتصلبت عيناه. فقد كان يكفيه أن يتردد حسان ربيعي لحظة لتعود إليه شجاعته. وقبل أن يفعل شيئا يترجم تلك العودة، وقف حسان ربيعي، فبدا السائق قدامه كطفل في

http://mzaj4.blogspot.com/

الرابعة تلامس رأسه ركبة والده.

لم يحدث شيء غير تراجع السائق إلى كابينته متحسرا على تلك الفرصة التي ضيعها ليثبت رجولته، وغير عودة حسان ربيعي للجلوس على مقعده بجوار خالتي لويزة.

هـذه المـرة حـاول ألا ينظـر فـي اتجـاه جارته. أسـند رأسـه إلى الزجـاج المضبـب وأطبـق جفنيـه. كل مـا كان يخشـاه أن تعود خالتي لويزة إلى استجوابه عن حياته وماضيه. لو أنها سمحت له بأن يلخص ما تسأل عنه بإلحاح لأخبرها بصوت هادئ ورزين، وبلباقة رجل نبيل أنها تشـبه «التغوط» والحمد لله. فرغم قرافته ورائحته وشـكله ولونه وحالاته أيضا، ضروري ليشعر الإنسان بالراحة أو بما قد يشبه الراحة. أما إذا أراد ألا يصدمها فسيقول لها بروح الفيلسوف الذي اختبر كل شـيء أنها كمكوك الحياكة، كلها ذهاب وإياب ولا شـيء بينهما غير التعب والجهل بما ينتهي إليه.

ولكنهـا، علـى عكـس مـا تمنّى، لم تسـمح لـه بأن يلخص حياته واستمرت في سؤاله:

«وهل أنجبت؟».

أراد أن يجيبهـا «ولِـمَ أفعـل؟». بيـد أنـه خشـي ألا تفهـم جوابـه وتحسـب أنـه راغـب عـن الإنجـاب لئلا يورث قبحـه إلى ذريته. ومع هـذا فلـم تكـن، إذا خمنـت هـذا، قد جانبت الحقيقة كثيرا، فمهما بلغ جمـال زوجتـه، وهـي ليسـت جميلـة بالمعنى الشـائع، فإنه سـيورثهم بعض صفاته: وجهه الطويل كوجه كلب سـلوقي، ذقنه الهلالي، فكه البارز، ثلته السوداء المشعرة، طوله الفارع، تيبسه.. أي واحد من هذه الأوصـاف كان ليدخـل أولاده المحتملين إلـى خانـة القبح، فما بالها لـو اجتمـع فيهـم وصفـان أو أكثر. حتى هو رغم ادعائه اللامبالاة كان

http://mzaj4.blogspot.com/

يدرك مخاطر الإنجاب.

«لا لم أفعل، فزوجتي عاقر».

قال ذلك دون حزن.

والحقيقة أن أكثر ما جعله يهتم بالزواج منها، رغم حبه لها على الأقل في الأيام الأولى أو حين يتضاجعان، هو عقمها الذي بسببه طلقت مرتين.

لم يكن في ذلك وحيدا، وهو يعلم هذا بالضرورة، فهو على الأقل أحب زوجته لعقرها، على عكس أبناء «الوطن الإجباري» الذين يعشقون هذه الأرض العاقر دون خيار. ببساطة لأنهم ولدوا عليها.

«لا بأس، كل شيء بالمكتوب».

قالت خالتي لويزة مواسية وهي تنظر صوب ابنها أمين قرللوّ الجالس مع زميلته وعشيقها.

لو كان لها أن تضيف شيئا لقالت «إن كنت ستنجب شبيها بأمين، فخير لك ألا تنجب أبدا»، فهي حين واسته، لم تواسه هو، بقدر ما واست نفسها في فجيعتها، هذه المسماة خطأ «أمين».

لم تعلم لحد الساعة لماذا انحرفت خياراته ليصبح على ما هو عليه اليوم. لقد ولد كأي ذكر، وتربّي كأي ذكر ولبس ولعب كما يلبس ويلعب الذكور، ولكنه في النهاية، حين حان الجد، اختار عكس ما يختاره الذكور.

كانت تلومه على خياره وتلوم نفسها على أمر لم تقترفه ولم تعلمه، وحين ملت من محاكمته ومحاكمة نفسها، قبلت به – على خلاف أبيه – كما هو، ففي النهاية يبقى ابنها رغم قرفها منه.

ربما لو فكرت أكثر، وتأملت فيما حولها لتوقفت عن محاكمته

http://mzaj4.blogspot.com/

ولفهمت أن الخيار الذي يبدأ بالجبر ليس خيارا، وأن الجبر الذي ينتهي بخيار ليس خيارا أيضا. كلتا الطريقين وما بينهما مجرد وهم.

لكنها لم تفكر ولم تتأمل في وضع أمين. قبلت به دون أن تصارحه ومن غير أن تعترف بوجوده. كانت تعيش حالة نفاق ذاتي بشعة: تسأله كلما اختلت به «هل تملك صديقة؟».. «هل وجدت توأم روحك؟.. هل وقعت في الحب؟». تسأله وهي تعلم أنه مثليّ سالب.. تسأله ولا يرد.

غالبا، كانت بطريقتها تبحث عن شيء من الراحة، خلاص من نوع ما. تماما كالذي بحثت عنه المرأة العجوز حين انصرفت تاركة طفلها في شقتها المؤجرة، رفقة زوج لا يعرف من الحياة إلا «العلف».

ولكنها وهي تبلغ ساحة أول ماي في ذلك الفجر من عام 1982 أدركت فظاعة ما اقترفته، وحين همت بالتراجع والعودة إليه تذكرت ما قد يحصل معه إذا استمرت في لعب دور الأم الذي لم تجده أبدا. تذكرت نظراته منذ عامين وبكمه الذي استمر سنة كاملة حتى حسبت أنه صمت للأبد. لو لم تكن هي أمه لما حدث معه كل هذا، ولو أنها أجهضته وعملت بنصيحة زوجة أبيها أو تركته أينما شاء مثلما فكرت حين أنجبته، لاحتفظت في ذاكرتها بما هو أجمل من تلك الذكرى اللعينة التي دفعتها لاتخاذ هذا القرار. لكنها بعنادها أو بغريزة الأم قررت أن تحتفظ به، لتفر لاحقا من غرفتها التي سجنها فيها أبوها صونا لسمعته، إلى المدينة الحلم، تلك التي يقصدها الجميع.

وكالجميع أيضا كانت واقفة في بهو محطة الجزائر تنتظر فَرَج الكهرباء.

لم تتصور وهي تدخل المحطة منذ دقيقة أن تجد فيها كل تلك الحشود المنتظرة للقطارات المتأخرة عن مواعيدها. أسعدها الأمر ما

http://mzaj4.blogspot.com/

دامت قد ضمنت قضاء بعض الوقت بعيدة عن انشغالها اليومي في البحث عن الأمان.

وحين استقرت على مقعد خشبي يمين مدخل المحطة غير بعيد عن كشك التبغ آخرها، فتحت حقيبتها ذات الحلقات المعدنية. تراءت أوراق نقدية من فئة الألف دينار مطوية على اثنين فوق ما بدا أنه قماش أسود. سحبت الأوراق وعدتها فوجدتها أربعا، ثم جعلتها أسفل الحقيبة بعد أن طوتها أكثر، وإذ هي تفعل ذلك سحبت سيجارة من علبة غلواز كانت في زاوية من الحقيبة وأشعلتها بولاعة رخيصة أخرجتها من جيب معطفها الكاوي.

فجأة عاد النور إلى البهو، وما أن عاد حتى رأت تلك العيون المحدقة فيها مغروسة في وجوه صبغتها الدهشة. كانوا يبحلقون فيها وكأنهم رأوا رجلا بعضوين. لم تهتم بهم واستمرت في أخذ أنفاس عميقة من سيجارتها دون أن تكف عن النظر فيهم والابتسام.

تساءل أحدهم مستهجنا:

- عجوز تدخن!.. أليس أمرا غريبا؟

ابتسمت له فتاة في العشرين رافعة كتفيها وكأنها موافقة. وتمتم آخر وكأنه يهمس «الشيب والعيب»، أما الشاب الذي كان جالسا بجوارها فأخفى فمه بكفيه وكأنه استحى من ضحكة لن يفهمها سواه.

وتتالت التعاليق منددة بما اقترفته المرأة العجوز، ولكن لا أحد تقدم نحوها وصارحها باستهجانه لفعلتها تلك.

لم يكن الأمر غريبا ألا يجرؤ أحد، ما دامت هذه عادة متأصلة في «الشعب المسلوب من كل شيء»: الجميع ناقم، الجميع يندد، الجميع رافض، الجميع يشكو، ولكن لا أحد يرفع صوته بأي شيء، وكأن

http://mzaj4.blogspot.com/

النقمة لم تعد إلا طريقة أخرى في التنفيس لقبول الأمر الواقع: واقع السلب المشروع، واقع الظلم العادل في ظلمه. فقد كان الجميع يحفظ دون أن يـدري خطـب «المخـرج المتذاكـي» ونصائحـه لحيـاة كريمة، يحفـظ أوامـره التـي لـم ينطـق بهـا فـي أن يُقطِّع الليل كـي يتدفق فيه، فـي أن يصنـع مـن صمتـه شـبعا يتغذى مـن جوعه، في أن يلبس عريه ويتغطـى بالثلـج ليتدفـأ، مـا دام الشـعب موقنـا بقناعته أو رغما عنه أن أسـواق البسـمة يملكها جرذ يحرسـه القمل، وليس له بعدها إلا أن يحترس ويحذر من أن يغمس ذيله في صحون حسـائه أو أن يغرس في أدبار رجاله أو أن يغرز في فروج نسائه.

ولأنها علمت أنهم لا يجرؤون، فقد أخذت تدخن بمتعة شاذة محدقة فيهم بدورها حتى انتهت من سيجارتها الغلواز، وقد استسلموا ورفعوا عنها أبصارهم وتعليقاتهم غير المجدية.

قالت تسأل الشاب الجالس بجوارها:

- أثمة ما يمنع امرأة من التدخين؟

ابتسم لها ورفع كفيه عن فمه الضاحك.

- لا.. ولكنك تعلمين؟

- أعلم ماذا؟!

سألته وقد حدست إجابته.

- أنت امرأة؟

- الحمد لله أنك لاحظت هذا بمفردك.

قالت ذلك ساخرة.

ضحك الشاب وأضاف:

- تعلمين أنه من العيب أن تدخن المرأة أمام الجميع.

http://mzaj4.blogspot.com/

- لأنها امرأة أم لأنها تدخن أمام الملأ؟
- بل لأنها امرأة.
- ومن قال ذلك؟
- الجميع.. الجميع يقول ذلك؟
- تقصد الرجال بالطبع.
- أقصد الجميع.
- هذا لأن المرأة المدخنة امرأة فاسدة.
- أكيد.
- والرجال؟
- ما بهم؟
- هل إذا دخنوا أصبحوا فاسدين؟
- لا علاقة للتدخين بفساد الرجال.
- ولكن له علاقة بالنساء.

صمت لحظة وكأنه أراد أن يفكر أكثر في سؤالها، فلم يكن يعلم إلى أين ستقوده مجادلتها.

قال محاولا إنهاء الحديث:

- لا أدري.. الأكيد، هذه هي العادة.

ابتسمت وهي ترى ارتباكه، والحقيقة أنها ذعرت من هشاشة عقل شاب يفترض أن يكون متفتحا على كل شيء.

الأكيد أن هندامه وعقله لم يكونا يسيران على سكة واحدة، فقد كان كالقروي الذي يربي دجاجا في شقة بالمدينة.

لم يصدمها الأمر طويلا واستلت سيجارة أخرى مستمتعة بفسادها.

http://mzaj4.blogspot.com/

-2-

لاحظ حسان ربيعي أن دقائق مضت دون أن يسمع الصوت الغائر فيه. توقفت فجأة تعليقاته وهمساته وضحكاته. أتراه استسلم أخيرا لتجاهله؟!

لم يشأ أن يعلن انتصاره، فلطالما فعلها الصوت قبل اليوم، يختفي ثم يظهر ثم يختفي مرة أخرى.

الذي هاله حقا، أنه لم يختف أبدا بمحض إرادته، فمنذ ظهر أول مرة في ذلك القبو اللعين لم يختف إلا حين يضطره للاختفاء. كان يكفيه أن يبتلع حبة «هالدول» أو حبتين ليصمت إلى الأبد. أما الآن فقد اختفى دون أن يدفعه إلى ذلك.

نظر حوله كأنه يبحث عن شيء. كانت عيناه الواسعتان بلا معنى تائهتين بشكل جليّ، وحدقتاه السوداوان الغائرتان في تجويفهما العظمي منطفئتين كعيني مدمن في حالة انتشاء.

شعر بجفاف شديد في فمه، فمطَّ شفتيه العريضتين حتى ابتلتا دون أن يكف عن النظر حوله، وفجأة شعر بارتخاء غريب وبرعشة في يده اليمنى، فزمَّ فمه بشدة وأغلق عينيه ليرى الظلمة.. مرة أخرى.

فتح عينيه، فإذا بحدقتيه تبرقان بنضارة يشوبها بعض الخوف، كانتا ترتعدان في مكانيهما. اختفى الجفاف من فمه وتوقفت يده عن الارتعاش. إلا أن جسده المرتخي منذ حين كان أكثر تخشبا وأقل تيبسا، فقد كان يشعر بالبرد يسري في عظامه.

http://mzaj4.blogspot.com/

لف نفسه بذراعيه، رافعا ركبتيه إليه.

نظر حوله من جديد.. «يا إلهي لقد عدت!».

صرخ فعاد صراخه صدى إليه.

حدَّث نفسه وكلماته تتقطع في حلقه، مغمضا عينيه «هذا مجرد حلم.. هذا مجرد حلم.. هذا م - ج - ر - د - ح - ل - م.. هذا...». وفتح عينيه.

لم يكن حلما، كان عودة قسرية إلى الذكرى، تلك التي ولد فيها الصوت الغائر فيه.

لحظتها، أدرك كم كان غبيا حين ظن أنه تخلص من الصوت الغائر فيه دون دواء. لماذا لم يفكر في أن يحمل معه حبة «هالدول» إضافية ليتخلص منه طيلة اليوم؟

عاوده الارتخاء، ولكنه هذه المرة كان يسرج بعض الخوف. الخوف مما سيحدث لاحقا.

كان في ذكراه تلك ينظر إلى نفسه وهو يعرف ما سيحدث، كإله عابث يشاهد قدرا كتبه قبل أن يكون، ولكنه على خلافه لم يكن يحفظ في قلبه تلك الكلمة السحرية التي تغير أي شيء «كن.. فيكون». لم يكن في ذلك أفضل من «السيكلوب» الذي يعرف ساعة حتفه دون أن يقدر أن يفعل شيئا يغير النهاية، تلك التي يعرف مسبقا أنها ليست سعيدة، ما دامت هي نفسها ما أنجبت الصوت الغائر فيه، ظله الذي يتبعه حتى في الظلام.

حاول أن يثبت. همس لنفسه مُطَمْئنا: «ماذا سيحدث أكثر مما حدث؟».

الغبيّ! لم يكن يدرك أنه في كل مرة يعود إلى قبوه اللعين،

http://mzaj4.blogspot.com/

يفقد شيئا من عقله. كلما عاد إليه تجذَّر في عقله الصوت الغائر فيه أكثر وأكثر.

«ماذا سيحدث أكثر مما حدث؟».

أليس هذا نفس السؤال الذي يطرحه «الشعب المسلوب من كل شيء» كلما ألمت به مصيبة. أليس هو ما جذّر الذلة فيه حتى لم يعد يدرك كم مرة يستباح، كم مرة يَغرز الجرذ ذيله في دبره.

وإذ سأل نفسه، رأى الطفل الجالس على درج الإسمنت العريض يجفل وكأنه سمع شيئا.

بدا الصوت كوقع أقدام بعيد يقترب شيئا فشيئا.

«يا الله، لقد نجوت».

صرخ الطفل وقد انتفض من مكانه يقرع الباب بقوة حتى توقف الصوت.

توقف بدوره عن القرع ووضع أذنه على الباب ملتصقا بها لعله يسمع شيئا. كان السكون مطبقا كالموت لولا صوت لهاثه المتقطع.

«لم يكن وهما، سمعت وقع أقدام».

همس لنفسه مذهولا.

بقي دقائق ملتصقا بالباب، حتى هدأ وتوقف عن اللهاث.

وهو يعود إلى درجه الإسمنتي شعر بمزيج من الخيبة واليأس. جلس من جديد وقد ارتخت ذراعاه، ينظر إلى حذائه وقد تسرب إليه الماء. كان ينظر إليه فحسب، وقد توقف عقله عن التفكير. تماما كما كانت المرأة العجوز تنظر إلى حذائها الممزق وهي جالسة في بهو محطة الجزائر في انتظار أن يخف المطر.

بدأ الناس حينها ييأسون من قدوم أي قطار. اختار بعضهم

http://mzaj4.blogspot.com/

الرحيل والبحث عن وسيلة نقل أخرى، وانزوى البعض الآخر يدخن أو يلوك أي حديث. أما هي فقامت من مقعدها لتنظر من باب بجوارها لترى هل هدأ المطر أخيرا، ثم عادت وشيء كالبسمة على وجهها وهي تهمس لنفسها «يبدو أن حزن الله شديد هذه الليلة».

حين شعرت بجفاف ثيابها فكرت في أن تشتري من الكشك المجاور مطرية جديدة وأنبوب غراء «باتكس» ولوح شيكولاطة: المطرية للمطر والغراء لحذائها المشروخ والشيكولاطة لتسكت جوعها. ولكنها لم تجد عنده مطرية فقررت أن تمكث في البهو لوقت أطول ريثما يتوقف المطر.

كان اللوح من نوع أمباسادور، شيكولاطة سوداء أفضل الأنواع في نظرها، فلطالما أحبت تلك المرارة الممزوجة بالحلاوة التي تخلفها. وهي تعترف دون خجل بأن ابنها من جعلها تكتشف هذا الذوق الرائع والرفيع.

إلا أن الذوق هذه المرة لم يعجبها كثيرا، فلم يكن اللوح بالصلابة التي يفترض أن يكون عليها. كان شبه ذائب بسبب انعدام شروط الحفظ لدى الكشك، ومع هذا لم تتوقف عن التهامه بشراهة رجل لم يأكل أمدا، وهي تحاول في كل مرة يخرج فيها ريقها الممتزج بالشيكولا أن تلعقه بلسانها أو تمسح أعلى ذقنها بأصابع يدها اليمنى التي اصطبغت باللون البني المسود دون أن تلاحظ.

وحين انتهت أخرجت مرآة زينة من حقيبتها لتنظف وجهها وتعيد زينتها التي محاها المطر منذ قليل.

نظرت إلى وجهها فتملكها الضحك وهي ترى كيف تلطخت شفتاها وذقنها وجزء من وجنتيها. ودون أن تشعر، خفت ضحكتها حتى تلاشت في سرحان هادئ وكئيب. فلقد اختفى انعكاس وجهها

http://mzaj4.blogspot.com/

على مرآتها واحتل مكانه وجه ابنها الملطخ والمتسخ. كان يضحك بجنون وهي مثله تضحك ولكن بسعادة متوجسة.

كان ذلك في آخر عشاء جمعهما معا.. يوم قررت أن تختفي من حياته.

ليلتها، أعدت له عشاء فاخرا، جعلت فيه كل ما اشتهاه يوما: دجاجا محمرا، شرائح لحم مشوية، بطاطا مقلية، سلطة خضراء بالبيض المغلى والتونة، مياه غازية، فواكه، جبنا.. والأهم من كل ذلك مثلجات بنكهة الفراولة والشيكولا.

لم يلاحظ أنها طوال العشاء لم تضع شيئا في فمها، حتى زوجها نصف الصاحي لم يلحظ. كانت مكتفية بالنظر إليه، وهي تحاول في كل نظرة أن تسجل في ذاكرتها تفصيلة ما.

كان يأكل كعادته بشراهة وهي لا تكف عن حثه على أكل المزيد.

«هذه لك». وتضع قطعة دجاج في فمه.

«وهذه أيضا». وتضع قطعة لحم أو بطاطا تدفع بها الأولى.

«وهذه.. وهذه..».

حتى يمتلئ فمه وقد انتفخ بما فيه، فتكف عنه إلى حين يبتلع ما حشرته داخله، وتبدأ من جديد. وكلما شعرت بجفاف ريقه أو أنه وجد صعوبة في الابتلاع تسلمه كأس ماء أو كأس ماء غازي.

طوال العشاء لم تسمح له بالأكل بنفسه. كانت تجد متعة رهيبة وهي تطعمه بيديها.

أثناء ذلك كان زوجها نصف الصاحي يعلف دون أن يلاحظ أنها أول مرة تطعم طفلها بنفسها، لم يلاحظ ذاك الوهج على وجهها كلما ضحك أو ضحكت. وحده ابنها من شعر بشيء غريب يحدث معها.

http://mzaj4.blogspot.com/

لم يكن شـعورا فحسـب، هذا الذي انتابه وهو يرى ما لفّ عيني أمه وهي تناوله المثلجات، حتى لطخت وجهه دون أن تدري.

حينها ضحكت لتستر شرودها، أما هو فاكتفى ببسمة لا طعم لها.

كان يعلم في قرارة نفسه أن ثمة شيئا سيحدث، ربما أفظع مما حدث له منذ عامين.

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الرابع

قصص اختفاء

-1-

وأخيرا.. عاد انعكاسها إلى المرآة.

ومع ذلك، لم تعد إليها رغبتها في التزيّن، فأرجعت المرآة إلى مكانها دون أن تغلق حقيبتها.

شعرت بكتلة في بطنها ترتفع ببطء إلى صدرها. لم تكن مَغَصا بقدر ما كانت ضيقا شديدا جعلها ترفع رأسها وتفرج فمها شاهقة زافرة.

«يا إلهي إلى متى سيدوم الأمر؟».

تمتمت غير منتبهة للشاب بجوارها وقد هاله كيف تحول صوتها إلى حشرجة بالكاد تفهم.

أطبقت جفنيها فدفعت بما تجمَّع من دمع في عينيها خارجا حتى اسودَّت وجنتاها من أثر الكحل المتحلل فيه.

أخيرا تخلّصت من آخر زينة لها.

لو أنها نظرت إلى نفسها في تلك اللحظة، أو أنها اقترضت عينيّ الشاب الجالس بجوارها، لهالها الشبه بين وجهها القديم المترهل ووجهها الفتيّ في ذلك الفجر من عام 1982، حين بلغت ساحة أول ماي وأدركت استحالة التراجع عن قرارها.

ساعتها، كانت العاصمة غارقة في نومها، أو لنقل إنها للتو

http://mzaj4.blogspot.com/

افترشت لتنام بعد ليلة أهازيج لم تنقطع فرحا بانتصار عظيم.

«عظيم»..

هكذا وصفه «المخرج المتذاكي» ووسوس به للشعب المسلوب من كل شيء حتى صدقه.

أخيرا وجد المخرج المتذاكي عظمة يلقيها للشعب ليتلهَّى بها. حقنة مورفين أخرى تحلّق به في سماء الوهم، فقد كان ظاهرا أن حُقن الثورة والاشتراكية والمساواة والعدل الاجتماعي والحقوق الجماعية وعدالة البوليتاريا والأرض لمن يفلحها والثورة الصناعية وغيرها من ترهات، لم تعد قادرة على التحليق به مثلما كانت. كان «المخرج المتذاكي» مدركا خطورة أن يخرج «الشعب المسلوب من كل شيء» من إدمانه. سيستفيق حتما ولكن ليس الآن، على الأقل ليس قبل أن يرشد، إن كان سيرشد يوما.

كانت «العظْمة – المَخْرج» هبة سقطت من السماء. أيكون الله من ألقاها؟! حتى «المخرج المتذاكي» لن يصدق هذا. كل ما في الأمر أن فتية وجدوا أنفسهم يلعبون الكرة مع ألمانيا، فأخذتهم الحماسة وفازوا. صرخ المعلّق بذهول «لقد فعلوها.. حققوا انتصارا عظيما... أووووووه صنعوا ملحمة». حينها التقطت أذنا المخرج هذه الكلمات، وقبل حتى أن يُتم المعلق صرخته، تقرر بشكل رسمي أن فريق «الوطن الإجباري» صنع المعجزة، حقق نصرا عظيما، كتب في صفحات التاريخ ملحمة أعظم من ملاحم اليونان. وكما تصور بعقله الجبار، أكسبه الانتصار العظيم أربعة أعوام أخرى في فراش امرأته العاقر(*).

(*) إشارة إلى مونديال إسبانيا عام 1982، حين انتصر المنتخب الجزائري على نظيره الألماني.

http://mzaj4.blogspot.com/

هكـذا اختفـت متاعـب المخـرج المتذاكـي، كما اختفـت المرأة العجـوز مـن حيـاة ابنهـا فـي ذلك الفجر من عـام 1982، وكأن الحياة قصص اختفاء مستمرة في الظهور، أحيانا تختفي لتروي شيئا واضحا وأحيانا تختفي لتختفي فحسـب، ولكنها في النهاية تظهر لتؤلم أكثر، تماما كما ظهرت لحسان ربيعي وزجَّت به رغما عنه إلى ذكراه اللعينة، حيث كان جالسا يحدق في حذائه وقد تسرّب إليه الماء.

كان فمـه جافـا إلـى حـد أن كل ريقـه لـم يسـتطع تبليـل شـفتيه العريضتين. بدأ يشعر بوخز الجوع ينتشر في بطنه الخاوي منذ الظهيرة، حتى خيل إليه أنه يسمع صرخات مستغيث تصدر منه.

الآن لـم يعـد يملـك فـي عقلـه أو جسـده ما يجعلـه يقاوم أكثر. لم يعد قادرا حتى على الجلوس لوقت أطول. وكيفما اتفق، استلقى واستسلم للآتي.

هل طالت غفوته؟ لا أحد يدري، حتى هو لم يعد يتذكر.

كل ما يذكره أنه استفاق دونما سبب، ثم غفا واستيقظ من جديد ليغفو مرة أخرى.

ومع كثرة ما غفا واسـتفاق لم ينقض الليل أبدا. لكنه فضل أن يطبق جفنيه إلى حين أن يتقرر أمر ما: أن تفتح الباب ويجرؤ الضوء ويقتحم العتمة.

لم يكن المسكين ليعلم أن الباب حين تفتح بعد دقائق، لن تجلب الضوء كما تصور، بل إنها ستضيف إلى عتمة القبو عتمة أخرى، أكثر ظلاما وسرمدية.

ربما لم يعلم وهو مسـتلق على درج الإسـمنت في ذلك القبو، مـا قـد سـيدخل مـن البـاب حيـن تفتح، ولكنـه كان يعلم بالتفصيل ما

http://mzaj4.blogspot.com/

يوشك على الحدوث وهو يرى نفسه في ذكراه تلك، مجبرا على أن يعيشها مرة أخرى. لذلك حين بلغ هذه المرحلة من المشاهدة، توقف، بشكل ما، عن الرضوخ وعاد إلى نفسه من جديد، حيث كان جالسا بجوار خالتي لويزة وقد عادت من سرحانها في ابنها أمين.

نظرت إليه، فأذهلها شحوبه المفاجئ.

كان يتعرّق بشكل مقرف وفظيع، وأنفاسه الكريهة تتقطع وكأنه مريض ربو. أما ذراعاه الطويلتان كذراعي قرد شنبازي، فكانتا مرتخيتين ارتخاء رجل مقبل على الموت.

سألته بذهول: هل أنت بخير؟

لم يجب.

وارتخت ساقاه أيضا حتى ضربتا المقعد المقابل.

كان يسمعها ويراها، ولكنه لم يكن قادرا على النطق بعد.

لحظتها، سمع الصوت الغائر فيه يصدي في رأسه «لا عليك. لم يحن الوقت بعد، سنعود مرة أخرى ولكن ليس الآن».

هنا، أيقن كم كان غبيا حين تصور أن الصوت الغائر فيه قد اختفى. لقد كان دوما معه. يحرك الأشياء في رأسه ليجبره على العودة إلى حيث لا يرغب، إلى حيث لا يمكن أن يرى غير العتمة.. تلك التي أنجبته.

http://mzaj4.blogspot.com/

-2-

حيـن اسـتعاد وعيـه مـن جديـد، أخذ نفسـا طويـلا وقد أدرك أنه كان قاب قوسين من الهلاك.

ابتسم لخالتي لويزة فانفرج وجهها واستعاد لونه.

قالت له: يبدو أنك لم تشف تماما.

«ليس تماما، ما زلت أتابعه بالدواء منذ ذلك الوقت».

قال بصوت خافت دون أن ينظر نحوها.

أضافت:

«لم يكن الأمر هيِّنا. كان الله في عونك يا بني».

حرّك رأسه موافقا، وعيناه تتشبثان بزجاج المقاعد المضبب، أملا في أن تلمحا شيئا غير انعكاس ضوء النيون وقطرات الماء وبخار الهواء.

وقبل أن تضيف شيئا عن مرضه، قال لها مغيِّرا مجرى الحديث:

- أما زلت تشتغلين في المحاماة؟

أجابت بحزن:

- تمنيـت، ولكـن العمـر كمـا تـرى لم يعد يسـمح بالعمل. تلك مهنة تحتاج إلى الحركة وإلى قلب سليم.

تبشش وعلق:

- ما زالت البركة يا خالة.

- صحيـح، ولكـن بقـدر مـا يسـمح لـي به ضغط الـدم وأوجاع الروماتيزم وقلبي هذا الذي أوهنته المصائب أكثر من الزمن.

http://mzaj4.blogspot.com/

ثم تنهدت وهي تسحب كلمات أخرى من حلقها.

- أترى هذا؟

وأشارت إلى ابنها أمين.

- هـو وأبـوه سـبّبا كل عللـي. أتصـدّق أن أبـاه هجرنـي بعد كل تلك السنين من أجل فتاة في نصف عمره، لم يبق معها أكثر من سنة واحدة؟!.. كانت أمك محقة بشأن الرجال، لا أمان لهم على الإطلاق.

تنهـد وهـو راغـب فـي أن يقـول شـيئا، ولكنـه أدرك وهو يحدج وجـه أميـن قرللـو بنظراتـه، أن كل قواميـس العالـم بجميع لغاتها غير قادرة على أن تخفف من فجيعة خالتي لويزة في ابنها. ومع ذلك قال:

- أمين كبر الآن، وليصنع من حياته ما يشاء. أما أبوه فلا أعتقد أنه كان يعقل ما فعل حين هجرك. أتخيله الآن راغبا في أكل لحمه ندما.

ضحكـت وهـي تقلـب في رأسـها كلماتـه «أتخيله راغبا في أكل لحمه ندما».

هـذا رجـل يعـرف مـن أيـن تؤتى الأنثى، عجوزا كانت أم شـابة نضـرة، فليـس أفضـل عنـد أيـة امرأة من طبـق غرور يقدم في لحظات الشك ليعيدها إلى ألوهيتها وإلى عرشها السمائي وإن كان وهما.

ومثلما ضحكت، ضحك هو، ساترا كعادته فمه الخاوي. ولولا أن باب كابينة السائق صرّت من جديد لما توقفا عن ضحكهما الذي لم يكن، في الحقيقة، لنفس السبب.

خرج السائق هذه المرة بزيه الرسمي كاملا: بدلة زرقاء بجاكيت مـزرّرة وقبعـة دائريـة زرقـاء ذات لسـان أسـود تحمـل كتابة بالحروف اللاتينية «SNTF».

تقدم نحوهما مبتسما واستسمحهما بلباقة مفرطة في الجلوس.

http://mzaj4.blogspot.com/

لم يُبديا مانعا، فجلس بجوار حسان ربيعي، قبالة المقعد الشاغر.

قال بلطف:

- يبدو أن محنتنا ستنتهي عما قريب.

حدقا فيه وكأنهما يرجوانه أن يسترسل. وإذ ذاك نزع قبعته الدائرية ووضعها على حجره، وانحنى وكأنه يريد أن يسرّ إليهما بشيء خطير.

قال هامسا:

- لم أعاتبك سيدي منذ قليل لأنك لم تجانب الصواب تماما.

انفرج فم خالتي لويزة واتسعت عينا حسان ربيعي أكثر، كما لو أنهما يشاهدان أهم مشهد في فيلم بوليسي معقد.

قال السائق بصوت أكثر خفوتا، وهو يفتح أزرار جاكيته الرسمية الزرقاء ليجد راحته:

- بعد أن عادت الكهرباء، تشوشت شاشات المراقبة في الكابينة وعطبت أجهزة الإرسال، ولم يعد أي شيء يعمل إلا مكبرات الصوت وألواح التحكم في الضوء. ولسبب ما، لا يمكنني كشفه، علمت أنه يستحيل تحديد موقع القطار على أجهزة المراقبة في القطارات الأخرى ومحطات سكك الحديد.

ثم صمت ليرى وقع كلامه عليهما، وقبل أن يضيف شيئا آخر انحنى أكثر وقال:

- تفهمان أن ما سأخبركما به لا يجب أن يبلغ مسامع الآخرين.

حركا رأسيهما بشكل متناغم وغريب: «أي نعم».

أضاف:

- حينها لم يكن من سبيل آخر غير توقع الأسوأ. فكرت لحظة أن أُخطر المسافرين بالوضع وآمرهم بكسر منافذ النجدة بالمطارق

http://mzaj4.blogspot.com/

الحمراء المعلقة في كل مكان بالقطار، على الأقل إذا وقع أي حادث لا سمح الله يكون القطار خاليا. ولكنني ترددت وخيرا ما فعلت.

صمت من جديد وكأنه راغب في أن يقاطعه أحدهما، ولكنهما التزما الصمت كتلميذين يحضران آخر درس قبل الامتحان.

– أتعلمان؟ الله وحده من ألهمني الفكرة. الأغبياء لا يعلموننا في التربص إلا مفاتيح القيادة، متى تزيد من السرعة ومتى تبدأ في التقليل منها، متى يجب الإعلان عن المحطة المقبلة وأي زر تضغط لتفتح أو تغلق الأبواب. تعلمان.. كل تلك الأمور التقنية المعقدة. الأكيد أنه يستحيل تعليمها لأي أحمق مثلما كانوا يفعلون زمن قطارات الديازال.

«هذا جيد».

علق حسان ربيعي، يحثه على العودة للموضوع.

«وماذا كانت الفكرة؟».

– دعني أشرح لك الأمر: هذه القطارات الكهربائية رغم روعتها، إلا أنها خطرة للغاية. هل فكرتما، مثلا، كم من الكهرباء يحتاج محرك يجر ثلاث قاطرات كل واحدة تسحب أربع عربات. لن أخبركم بدقة، ولكنني أؤكد لكما أنها طاقة رهيبة.. لا إنها طاقة مميتة. بالطبع لن أسرد عليكما حالات التكهرب التي حدث وأن قتلت الكثيرين، حتى أنني لن أخبركم بعدد من رأيتهم بأم عيني يتفحمون لتجرئهم على قطع سكة الحديد في الوقت غير الملائم.

«بالطبع.. بالطبع».

قاطعته خالتي لويزة وهي تخفي ابتسامتها الساخرة. لقد أدركت بخبرتها أنها بصدد رجل ثرثار ومعتوه.

كان السائق يتحدث في كل شيء وعن أي شيء، إلا الموضوع

http://mzaj4.blogspot.com/

الذي بدأ الحديث عنه، وكأنه تاه عنه بغير قصد، فقد تشعب في حديثه حتى لم يعد يظهر أي غاية رجاها وهو يقول لهم قبل قليل: «تفهمان أن ما سأخبركما به لا يجب أن يبلغ مسامع الآخرين».

أثناء ذلك كان حسان ربيعي يفتح محفظته السكاي دون أن يكف عن البحلقة فيه. كان يحرك رأسه يمينا يسارا، فوق تحت، راسما على وجهه بلادة وطيبة لا تجدهما عادة إلا على وجه قروي دخل المدينة أول مرة. أما خالتي لويزة فاستسلمت لضحكها، حتى لم تعد كفاها قادرتين على ستر وجهها، الذي دسَّته منذ حين.

فجأة، بلغ السائق نهاية حديثه:

– لهذا يا سيدي لم ألمك على تصرفك منذ قليل.

قال ذلك بنبرة عالم انتهى للتو من إثبات نظرية ما.

لم يجد حسان ربيعي ما يعلق به غير تحريك رأسه وغمز خالتي لويزة التي انفجرت ضحكا، والسائق في حيرة منهما. لقد كان من البلادة ما جعله لا يدرك أنه لم يقل لهما شيئا رغم ثرثرته، ومع هذا فقد فهم مغزى ضحكات خالتي لويزة وعاد من حيث أتى دون أن يلتفت.

وما أن اختفى السائق عن ناظريهما، حتى خفّت الضحكات ووجد حسان ربيعي ما كان يبحث عنه في محفظته. فقبل دقيقة أدرك أن هاتفه النقال لم يكن في جيوب جاكيته ولا جيبي سرواله، فدعته غريزته للبحث في محفظته ولم تخطئ.

نظر إلى الشاشة، فهاله أنها الساعة السادسة والنصف. لقد مضت ساعة كاملة منذ رحيل قطار الخامسة والنصف.

تنهد وقد تذكر أمرا كان ينوي فعله قبل أن يستقل هذا القطار.

http://mzaj4.blogspot.com/

-3-

«ما زالت الفكرة رائعة».

قال حسان ربيعي لنفسه وهو يفتح ملف الرسائل النصية. ثم قرأ:

333»

333

555

333

555

555

555

333

.

.

.

«555

وكلما ضغط بإبهامه لوح النزول، لم يجد غير هذه الأرقام.

كانت تلك، أرقام متعامله الهاتفي، رسائل تُعلمه بنجاح تزويد رصيده أو وصول رسائل صوتية ما.

أدهشه أنه من بين ستين رسالة لم يجد إلا رسالة واحدة من زوجته: «حسان، لا تنس أن تحظر الحليب وأنت عائد مساء». وفيما عدا تلك الرسالة كانت جميع الرسائل المحفوظة لمتعامله الهاتفي.

http://mzaj4.blogspot.com/

«أأكون قد محوت رسائلي ولا أذكر؟!».

سأل نفسه بعبط. ذلك أنه لم يسبق أن انشغل بما في هاتفه من قبل. كان يستعمله كهاتف منزلي: يكلمه الناس فيه ويكلم غيره. عدا هاتين العمليتين، فلم يكن يهتم بما في هاتفه من مزايا.

فكر في الأمر فوجده يستحق المزيد من التأمل، وإذ ذاك فتح ملف الأرقام الواردة، فذهل حين اكتشف أن آخر اتصال ورده حدث منذ شهر ومن زوجته أيضا. ثم نظر في الأرقام الصادرة فوجد أنها كثيرة وحديثة.

هل كان من الغباء بحيث لم يلاحظ أن لا أحد مهتم بمكالمته أو الاتصال به؟!

لم يجرؤ على أن يسأل نفسه، واستمر في التأمل، أملا في أن يجد تفسيرا آخر غير الذي يؤول إليه السؤال.

ولكنه بعد تفكير خلص إلى ذات النتيجة.

هل أفزعه الأمر؟ لم يفعل، ولكنه فتح عليه بابا كان من الهباء أن فتحه أصلا.

سأل نفسه بريبة: «ماذا لو اختفيت، هل سيلاحظ الناس ذلك؟!».

هذه المرة لم يكن محتاجا إلى كثير من التأمل والتفكير والوقت ليجيب دون تردد «لا.. لن يلاحظوا». على غرار المرأة العجوز حين قررت أن تختفي من حياة ابنها، وهي تظن أنها حين تفعل لن يلاحظ، أو على الأقل، سينسى بعد سنين.

لم تكن تلك أول مرة تقرر فيها أن تختفي، فقد سبق لها وجربت هذه اللعبة واختفت من حياة عائلتها قبل سنين من اختفائها الثاني. ولكنها لسبب ما لم تتذكر الأمر وهي واقفة بمحطة أول ماي تنتظر أي شيء تستقله إلى أية وجهة. ولم تذكره لاحقا إلا حين كانت ببهو

http://mzaj4.blogspot.com/

محطة الجزائر، وكأنها لم تكن قصة تستحق التذكر.

فقبل أربعين سنة، لم تكن المرأة العجوز امرأة عجوزا، ولم تكن تعرف من العاصمة إلا اسمها وقصصا طريفة تحملها جاراتها وقريباتها حين يزرن تلك المدينة البيضاء ذات المباني الشاهقة.

«شاهقة!»..

هكذا كن يصفن عمارات العاصمة، وهن وإن بالغن في وصفها، كن صادقات رغم ذلك، ربما لأنهن لم يزرن من المدن إلا مدينتي البويرة وسور الغزلان، أقرب المدن إلى قريتهن «عين طير الزين»، وهما في ذلك الوقت كانتا مدينتين لم تعرفا اختراع «الزفت» لتفهما في معنى العمارة.

كانت القصص عن العاصمة تستهويها. وهي وإن حلمت بزيارتها ذات يوم، لم يخطر على بالها إطلاقا أنها ستدخلها لاجئة دون رغبة، لترى بعد فترة وجيزة ما يستر ذلك البياض الناصع الموروث من زمن الرومي.

ولكن لم يحن الوقت بعد للحديث عن هذا، على الأقل ليس الآن، ما دامت لم تتذكر وهي جالسة في مقعدها ببهو محطة الجزائر قصة دخولها العاصمة أول مرة. لم تتذكر إلا وقوفها الشاحب أمام والدها ذات يوم من عام 1969.

ربما شعورها بالبرد ما جعلها تعود إلى تلك الليلة، فقد كانت تشعر بذات البرد يتدفق في عظامها آنذاك.

حدجها أبوها بنظراته الحادة. كان قلبه ممتلئا بالدم والغضب، حتى لم يجد في فمه تلك الكلمات القاسية التي اشتهر بها ليسألها أين كانت طيلة النهار. كانت شفتاه ويداه ترتعشان كرجل مريض بالباركينسون،

http://mzaj4.blogspot.com/

وحدقتاه تبرقان وتقفزان في مكانيهما وكأنهما تتهيئان للانفجار.

كان وجه أبيها في تلك اللحظة أبشع ما رأت في كل حياتها. ودَّت لو بصق أي كلام ليرتخي وجهه وتخف حدة عينيه اللتين ورثتهما منه. ولكنه ظل صامتا كالميت.

بالطبع، لاحظ وهي واقفة بين يديه كم نحلت منذ صبيحة هذا اليوم، وكيف تلون وجهها الآسر الأسمر بما يشبه الفحم. كان كالفحم ولكن أكثر سوادا.. كان قاتما كالصدمة. ومع أنه لاحظ ذبولها وانكسارا في عينيها، استمر في صمته ورعشته، واستمرت هي في الوقوف لا تعرف من أين تبدأ.

«من أين أبدأ؟».

سألت نفسها، وقد أدركت خطورة ما ستعترف به.

لن يصدقها، فهي مجرد أنثى، ضلع أعوج خلق للمتعة، باب من أبواب النار. لن يصدقها وسيصدر حكمه عليها، وكل رجال القرية الصادقين في شرفهم سيساندونه ويكتبون في تاريخهم الرسمي: «لم ينجب الحاج القريشي إلا ذكرا، أسماه بحمد الله عبد الرزاق ومات صبيا». وبعد سنين، حين يموت القريشي وأقربوه، سيشكك أحد المتعلمين في التاريخ الرسمي ويبحث ليجد اسمها مكتوبا على شاهد قبر «هنا ترقد بغير سلام مليكة لا رحمها الله». ثم يسأل عنها، فيقول من ورثوا كتابة التاريخ: «لا تهتم، لم تكن أحدا، لم تكن ابنة أحد».

ولكنها حين استطالت الصمت، فتحت فمها واعترفت.

كم كانت دهشتها عظيمة حين لم يصدر القريشي حكمه، واكتفى بآخر جملة سمعتها منه حتى وفاته: «عودي إلى غرفتك لا تبرحيها، حتى آمرك بذلك».

http://mzaj4.blogspot.com/

-4-

«من أين أبدأ؟».

قال حسان ربيعي محدثا خالتي لويزة.

«كما ترغب. أمامك ثلاثون عاما اختر منها ما تشاء».

ولكنها، قبل أن يختار شيئا، أضافت وكأنها تذكرت أمرا بعينه:

«لم تخبرني بعد عن أخبار أمك، اشتقت إليها وإلى نكتها الجميلة».

ابتسم بكآبة وقال:

«الحقيقة لا أعلم عنها شيئا منذ زمن».

«أيعقل؟!».

«أعتقد أنني السبب في اختفائها. أقصد كنت السبب».

وأضاف وكأنه يقول حقيقة مرة:

«لا ألومها، من تصبر على تربية مسخ».

«لا تقل عن نفسك هذا. ثم انظر، أصبحت رجلا محترما ومولا بيت(*)، كم من الرجال حقق ما حققت».

تابعت:

«ومن قام بتربيتك؟».

«زوج أمي».

«زوج أمك؟.. لا أذكر أنها كانت متزوجة».

(*) صاحب بيت، وتعني رجلا مستقرا ومتزوجا.

http://mzaj4.blogspot.com/

«تزوجت لاحقا، ربما سنة بعد آخر زيارتك لنا».

ورفع رأسه محاولا أن يتذكر.

«نعم سنة بالضبط، كنت في الحادية عشر».

«غريب!».

«وما الغريب في الأمر؟».

«بحسب ما أذكر، كانت أمك ضد فكرة الزواج، قالت لي مرة أنها لن تتزوج أبدا وأنك ستكون رجلها الوحيد».

ابتسم رغما عنه، ثم علق:

«ولكنها تزوجت، وتركتني مع زوجها».

ابتسم مرة أخرى، وقد تذكر للتو أمرا مضحكا.

«أتعلمين، حين أفكر في الأمر، لا أذكر أنه نام معها في الغرفة نفسها منذ تزوجا. كيف أصف لك الأمر. في ذلك الوقت كنت قد استعدت عافيتي، لا أذكر متى بالتحديد، ربما بعد المحاكمة..».

قاطعته:

«بعد المحاكمة بشهر، أذكر ذلك اليوم جيدا. لا تعلم كم كنت سعيدة يومها وأنا أراك تستعيد النطق، ربما كنت أسعد من أمك ساعتها. شعرت كأنني، أنا، من جعلك تشفى، لا أقصد لأنني فزت بالقضية، بل لأنك حين قررت أن تكلم أحدا بعد كل تلك الأشهر، كلمتني أنا. حتى أمك كما أذكر رغم سعادتها، كانت توبخني ساخرة «أرأيت سرقت مني ابني الآن». يا إلهي كم كانت جميلة تلك اللحظة.. أتذكر؟».

«أذكر.. أذكر».

وسرح قليلا حتى قاطعته:

http://mzaj4.blogspot.com/

«كنت تحدثني عن زوج أمك».

«صحيح.. صحيح». وتابع:

«المهم أنها دخلت ذات مساء برفقة رجل، قالت لي: حبيبي، أعرّفك على زوج أمك «يحيى». يمكنك أن تناديه «خالو يحيى». تزوجنا اليوم، وسيقوم برعايتك في غيابي.

لم يعجبني الأمر ولكنني ارتأيت أن أصمت وأرى ما سيكون. في تلك الليلة نام في صالة الضيوف ونمت أنا معها في غرفتها، وكذلك كان الأمر في كل ليلة».

«أمر غريب!».

قالت، محدقة فيه وكأنها ترغب في أن يقول المزيد.

«بالفعل كان أمرا غريبا، ولكن الأغرب منه أنه كان رجلا لا يتحدث كثيرا. أكاد أقسم أنه في بعض الأيام كان يكتفي بـ «صباح الخير» وبـ «مساء الخير»، وفيما عدا هاتين لم يكن يأبه بالحديث، لا معي ولا مع أمي.

مرة قلت لأمي إنه رجل بليد، فغضبت مني وشرحت لي أنه رجل طيب على حاله، وبالفعل كان كذلك. تصوري أنه طيلة عشرين عاما لم أره مرة يغضب أو يقول كلمة نابية أو حتى يغير من عاداته: كان يعمل حارسا في بلدية سيدي امحمد، تعرفين، كهؤلاء الذين تجدينهم أمام بوابة البلدية ويوجهونك إلى الشباك الذي ترغبين فيه، أو يفتشون في حقيبتك. يستيقظ كل يوم على السادسة والنصف. يتوضأ، يصلي ثم يتناول فطور الصباح: بيضتين مسلوقتين، كوب حليب بارد وتفاحة خضراء. يخرج للعمل ويعود في حدود الخامسة. يغير ثيابه ويتوضأ ويصلي ما فاته من صلاة، ثم يشرب فنجان قهوة ويدخن سيجارة وهو

http://mzaj4.blogspot.com/

مستلق يشاهد التلفاز، فإذا حان وقت العشاء، تعشى وعاد إلى مكانه بقـرب التلفـاز. وكلمـا أذن قـام للصلاة، حتى إذا بلغت العاشـرة ليلا، لبس بيجامته واستلقى لينام، ليصحو على الساعة السادسة والنصف.

لم يغيّر من عاداته هذه حتى بعد أن تقاعد».

«سبحان الله!».

قالت خالتي لويزة وتابعت:

«صدقت. هذا رجل بليد».

ضحك حسان:

«بل قولي رجل طيب على حاله».

«رجل طيب على حاله».

قالت ذلك، لتنفجر بضحك هيستيري، جعل كل من في العربة يضحكون مثلها دون سبب.

حين هدأت أو كادت. سألته من جديد:

«وأين هو الآن؟».

«توفي منذ ثلاث سنوات؟».

«المسكين». قالت ذلك بتأثر.

«حزنـت عليـه كثيـرا. فقـد اعتبرته مع الوقت بمثابة والدي الذي لم أعرفه».

«أمر مؤسف!».

«نعم، صحيح، لقد كان...».

ورددت معه:

«كان رجلا طيبا وعلى حاله».

وعاودهما الضحك من جديد.

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الخامس

مكاشفة

-1-

وإذ هما يضحكان، لاحظ حسان ربيعي أن توليفة الأصوات الضاحكة لم تكن دقيقة. فمع أنه يعرف صوته جيدا وبدأ يألف صوت خالتي لويزة، إلا أن مزيج صوتيهما لم يكن متناغما بشكل أكيد.

صمت، تاركا خالتي لويزة في قهقهاتها حتى يعرف ما الخطب. ركز أكثر، فأذهله ما اكتشف.

لم يكونا يضحكان لوحدهما!..

نظر حوله، فلم يجد بين الركاب وجها ضاحكا أو مبتسما يلصق به التهمة.

«أبيننا من يستطيع الضحك من بطنه؟!».

سأل نفسه ببلادة.

ولكنه حين توقفت خالتي لويزة عن الضحك، لم يحتج لنصف ثانية ليعرف صاحب الصوت. لم يكن الضاحك غير الصوت الغائر فيه.

كان يضحك بجنون، حتى اضطر حسان ربيعي إلى أن يمسك رأسه بين يديه لعله يهدأ، ولكن الصوت استمر في الضحك غير آبه به، كعادته، فأخذ يضرب رأسه بركبتيه وقد رفعهما حتى كادتا تلمسان صدره. ولكن، ما أن همّ بضرب رأسه بالزجاج المحاذي للمقاعد، حتى توقف الصوت الغائر فيه عن الضحك.

http://mzaj4.blogspot.com/

حينها، سمع الصوت الغائر فيه يهمس:

- أراك استحليت الحديث مع هذه الشمطاء.

زمَّ فمه وتجاهله. خشي أن يجيبه في رأسه فيتمادى في الحديث وينفرد به. فلطالما علم أن ما منعه من الجنون طيلة هذه الأعوام، إدراكه بعالميه: عالم الصوت الغائر فيه وعالمه الخاص. وما دام هذان يحترمان حدودهما فسيبقى في مأمن من الجنون. إلا أنه أحيانا بفضل الحبوب التي يتناولها كان يسمح لعالمه بأن يوغل في عالم الصوت الغائر فيه، فيخرسه أسابيع وأشهرا، حتى يخيل إليه أنه شفي تماما، ولكنه ما أن يتخلى عن حبوبه حتى ينحسر عالمه من جديد، ليجد نفسه مجددا بين عالمين، لا عمل له فيهما إلا المحافظة على الحدود. كان في ذلك كالمخرج المتذاكي محصورا بين عالمين: عالم ظاهر للشعب المسلوب من كل شيء، يكون فيه السيد، الآمر، الناهي. وعالم خفي، ليس فيه إلا مقدم نشرة رخيصة، لا يجرؤ على أن يقرأ نشرة أخرى غير التي قدمت إليه، ومع هذا تراه في بدلته المستوردة وماكياجه الفاضح كأنه المقرر في كل شيء.

إلا أن الصوت الغائر فيه استمر في الحديث. لم يكن يتحدث في شيء بعينه، مجرد جمل مرصوصة كيفما شاء. على الأقل، هذا ما كان يسمعه حسان ربيعي وهو يحاول تشتيت ذهنه وقد أدرك أن الصوت بدأ يستحوذ على كامل عقله.

حينها أدرك أن لا خلاص له منه إلا بأمرين: حبوبه التي ليست بحوزته أو أن يجد شيئا يشغل تفكيره ويمنع عنه الصوت.

هذه المرة لم يتردد. فتح محفظته وأخرج رواية ميودراك بولاتوفيتش «رجال بأربعة أصابع».

لم يمهل نفسه وشرع في القراءة:

http://mzaj4.blogspot.com/

«قدر تقول؟!.. أجل قدر، لكنه خنزيري.

ففي البداية تحب وطنك وتجاهد من أجله.

تنزف وتفخر بدمك النازف.

لكـن الوطـن الغالـي يلفظـك علـى مزبلـة غريبـة، نازفـا، مثخنـا بالجراح والدموع...

تقول: يا وطني الوحيد، لا تسمح لهم أن يبصقوا ابنك، لكنهم يطردونك من فوق المزبلة

مشفوعا بنباح الكلاب وأبشع النعوت..

ثم تتبع أناسا يستحيل عليك حبهم، وتغدو نازحا، تائها، لا تعرف شرقك من غربك...».

كان يقـرأ بمتعـة وشـره غريبيـن، حتى سـكن الصـوت الغائر فيه وخار كأنه لم يكن.

حينئـذ، فتحـت خالتـي لويـزة عينيها على وجه لم تره في حياتها أبدا. لم يكن ذاك إلا وجه الطفل الذي اختفى، ذات عام، منذ ثلاثين سنة.

فكرتْ: «كأنني أراه أول مرة». وبقيت تحدق فيه بذهول.

في ذلك لم تكن مخطئة، فهي حتى في تلك السـنة البعيدة لم تر فيه الطفل الذي تراه الآن. كل ما رأته وقتئذ كان ما تبقى منه وما أبقى عليه القبو اللعين، المقرف، النتن.

http://mzaj4.blogspot.com/

-2-

«نتن.. مقرف ولعين».

كانت تلك أول كلمات الصوت الغائر فيه حين سمعه أول مرة. لكنه، على عكس المتوقَّع، لم يكن يصف بها القبو الذي قتل الطفل فيه.

«أنت مثلي.. مقرف».

«مثلي لعين».

«مثلي نتن».

كان يهمس له وهو يزعق من الألم، وبقدر ما اشتد صراخه بقدر ما أصر الصوت على الهمس، وكأنه يحثه على الإيمان بكلماته تلك، ومع ذلك ظل الطفل الذي كانه يقاتل على جبهتين: عقله الذي اقتحمه الصوت حتى غار فيه، وجسده المنهك المنتهك.

فجأة، تماهى صراخه مع الصوت الغائر فيه، حتى لم يعد يعقل أيهما الغريب عنه.

حينئذ توقف الألم، وغاب عن الوعي.

حين استفاق، فتح عينيه على وجه رجل بأنف مدبب ووجه أحمر كريه، مستدير ومسطح.

- أنت بخير؟

سأل بصوت مرتعش، مهزوز.

- لا بأس عليك عزيزي، لم يكن أمرا ذا بال.

أضاف بثقة أكبر. ثم ابتسم متابعا:

http://mzaj4.blogspot.com/

- لم يحدث شيء.. تذكَّر، لم يحدث شيء.

وحين هم بأن يقول شـيئا آخر، أطبقت عينا حسـان وغاب عن الوعي.

استفاق ثانية، وشرّع عينيه بكسل.

- هل أنت بخير حبيبي؟

حدق في الوجه جيدا. هذه المرة كان وجه أمه الأسمر، الذابل المتبشش.

لم يجبها، وظل ينظر صوبها بعينيه الواسعتين بلا معنى.

تأملتـه، فبـدا لهـا أنـه ينظـر في الفـراغ. كان تائها وكأنه في عالم غير العالم.

داعبت شعره وقد غيَّمت عيناها، تصغي لأنفاسه المتقطعة، حتى ثقل جفناه وارتخيا ثم أطبقا.

لم يكن نائما ولم يفقد الوعي، كان ببساطة غير قادر على فتحهما فحسـب. حتى أنه حين حاول ثني ركبتيه لم يسـتطع، فأدرك أن في عروقه شيئا أثقل من الدم يجري فيها. أدرك ذلك دون أن يسعى لفهم ما يجري له وكأن عقله تخدر بالرضا والخنوع وقبول الأمر الواقع.

توقـف جسـده الطويـل المتيبـس عـن العمل وشـل عن الحراك. على الأقل، هذا ما شعر به وهو مستلق على ظهره في سرير لم يعلم لحد الساعة إن كان سريره أم لا، إلا أن شكوكا راودته وأنفه يلتقط تلك الرائحة الغريبة التي عادة ما تكون على ملابس أمه كلما عادت من عملها، كانت مزيجا غير سـويٍّ لروائح الكحول الطبي والمرض والموت. ومع ذلك لم يجزم في أنه كان في المشـفى، ما دامت أمه بجواره وهي تعبق عادة بتلك الرائحة.

http://mzaj4.blogspot.com/

ومع أن ما يجري في دمه أعطى غرائزه شبه إجازة، إلا أن أذنيه التقطتا شيئا. في البداية بدا كصوت فقاقيع ماء متباعدة، ثم كصوت متباطئ يتعسر فهمه، وفي النهاية كتمتمة وهمس انتهيا إلى أن أصبحا حديثا يدور غير بعيد عنه.

لم يكن قادرا على فتح عينيه والنظر إلى من يتحدث، ولو كان قادرا لما فعل، ما دام قد عرف أحد الصوتين..

- هل أنت متأكد؟

- الفحوص تؤكد ذلك.

- والعمل؟

- واجبي يفرض علي أن أعلم مدير المشفى ومصالح الأمن. لن ينقضي وقت ويأتي رجال الدرك ليسجلوا الحادثة.

- لكنه كان بمفرده. أنا متأكدة من ذلك، لا يمكن أن يحصل معه مثل هذا.

- تلك أمور تحدث لأيٍّ كان. لا علاقة لها بالشخص أبدا.

- ولكنه كان بمفرده.

- سيدة ربيعي.. الفحوص لا تخطئ أبدا، وقد أعدتها بنفسي مرتين، وفي كل مرة أخلص إلى نفس النتيجة.

- وماذا سيحدث الآن؟

- سيأخذ رجال الدرك أقوالك وشهادتي عن الفحوص، وبعدها يبدأ تحقيقهم.

- وولدي؟

- لا يمكن فعل شيء الآن حتى يستفيق غدا، ربما سيطلعنا على ما حدث. بالطبع عليك أن تفهمي سيدة ربيعي أن حالة حسان

http://mzaj4.blogspot.com/

قد تتأزم في أي وقت وبطرق غريبة أيضا.

- ماذا تعني؟!.. ألم تقل أن جروحه ستختفي بعد أيام؟

- كنت أقصد جروح بدنه، تعرفين، تلك التي خلفوها عليه.

- وحوش!

- هناك توابع نفسية قد تلحق به، ولكن الأمور ليست أكيدة.

- إذن!

- أنصحك بأن تجعلي طبيبا نفسيا يتابع حالته بمجرد أن يخرج من هنا.

صمت برهة وأضاف:

- أتفهم ما تعانيه الآن، ولكن عليك أن تكوني قوية من أجله.

- أعرف.. أعرف.

- هناك أمر آخر، وكِّلي محاميا جيدا، فالمصاريف الطبية باهظة ولن تتمكني بأجرتك الشهرية من تغطيتها كاملة، إلا إذا تمكن محاميك من أن يحصل لكما على تعويض يستحق.

هنا توقف البث، وتوقفت أذنا حسان عن الالتقاط.

كان واضحا أن الشيء الذي يجري في دمه قد تمكن منه أخيرا فـ.. نام.

http://mzaj4.blogspot.com/

-3-

في لحظة سحرية، كتلك التي تحدث في الكتب بين عشيقين اكتشفا أنهما وقعا في الحب من أول نظرة، صمت الجميع.

كان حسان ربيعي منشغلا برواية بولاتوفيتش، وصوته الغائر فيه متواريا في مكان ما داخل عقله، يتحين أية فرصة للانقضاض عليه. وكانت خالتي لويزة مشغولة بالنظر إلى الطفل الذي رأته لأول مرة. أما أمين قرللو فانزوى في مكانه يتأمل السقف، يفكر كيف يقنع أمه بأن لا تبيت عنده هذه الليلة. وكانت الفتاة ذات الجسد البريء والوجه الشاحب المكتنز والعينين الحالمتين، وعشيقها الذي يشبه الإثم قد توقفا عن مداعبة بعضهما وقد طارت الاستثارة إلى حيث لم يقدرا على اللحاق بها. أما الرجلان اللذان كانا في أول خط الدفاع، فقد ارتكنا صامتين بعد أن نفدت منهما كل النكت ولم يعد من المهم أن يحدثا بعضهما في شيء.

صمت الجميع ولم يعد يُسمع إلا صوت المطر يهوي على سقف القطار. ولكنه كان في ذلك الوقت أقل طقطقة من ذي قبل، وكأن سحب السماء بدأت تنضب رغم رغبتها المستمرة في الهطول، على خلاف التي كانت في رأس المرأة العجوز الجالسة في بهو محطة الجزائر، والتي كانت مستمرة بالهطول في ذكرياتها القديمة الجديدة.

والآن وقد أصبح للمرأة العجوز اسم، فلا بأس أن تُذكر به، وليكن خالتي مليكة أو «الحاجة مليكة»، فلطالما كان لقب الحاج يليق بمثل من كان في عمرها. حتى أنه يليق بمن هم أقل عمرا وأكثر

http://mzaj4.blogspot.com/

إثما منها وإن لم تطأ أقدامهم الحرم الشريف.

والحقيقة ألا أحد يستحق هذا اللقب أكثر منها، ما دام أن الحج في النهاية توبة وغسل للخطايا. وهي بقدر ما أسعفتها ذاكرتها لم تأثم منذ خرجت من شقتها ذات الغرفتين، حين قررت أن تترك طفلها. ولعلها لم تذنب قبلها إلا مرتين.. الأولى حين حبلت بابنها، والثانية سنة بعد ذلك. ولكنها وهي تذكر إثمها الأول، لا تجد نفسها أخطأت في شيء.

حتى أبوها لم يجدها مخطئة حين قصت عليه ما حدث، ولكن لم يكن أمامه من سبيل آخر غير حبسها في غرفتها.

انتشلها صوت المتذمرين من ظلمة أفكارها. لمحت وهي تعود إلى واقعها أن المنتظرين قدوم قطار ما عادوا للتذمر والتشكي، ولكنهم هذه المرة توجهوا إلى شبابيك التذاكر، مطالبين أصحابها بتقديم إجابة واضحة على سؤالهم: «هل سيجدي انتظارهم أكثر؟». بالطبع لم يكن سؤالا ذا بال، وإلا لارتبك قابضو التذاكر وأجابوهم بما هو أفضل من جواب يمضغونه منذ ساعة: «نحن نفعل ما بوسعنا.».

كانوا متجمعين أمام الشبابيك بغير نظام. ولكنهم، دون شعور، سرعان ما انتظموا وشكلوا طوابير بشرية تمتد إلى مدخل المحطة، تزداد انتظاما كلما مر دركي أو رجل شرطة بهم، ممن يقبعون عادة في محطات القطار.

كان واضحا أن عادة الطوابير غرزت في طباعهم، حتى غدت رد فعل غريزي مباشر لمجموعة من البشر مجتمعين أمام أي شيء. فلم يكن الأمر محتاجا لعقل عالم ليدرك ما قد تخلفه العادة في عقول أصحابها، سيما إذا كانوا من الشعب المسلوب من كل شيء، فالعادة فيه تصبح جينة وراثية غير قابلة للاختفاء.

http://mzaj4.blogspot.com/

لـم تحتـج للكثيـر مـن الحفـر فـي ذاكرتها، لتذكر تلـك الطوابير اليوميـة فـي كل مـكان: طوابيـر الزيـت، طوابيـر الخبـز، طوابيـر البن، طوابير الحليب، طوابير التبغ..

كان لكل سلعة طابور خاص بها، فمنذ عاد «الفتية» من المكسيك دون «نصر عظيم» كالذي حققوه قبل أربع سنوات في إسبانيا، لم تعد للمخرج المتذاكي أية حقنة مهدئة أخرى تشـغل الشـعب المسـلوب مـن كل شـيء. كان يـدرك أنهـا مسـألة وقـت فقـط وتظهر حقيقة عقر امرأته التي نعم بفراشـها منذ أن رحل سـابقه، والتي اسـتحلى لياليها منـذ انتصـار «الفتيـة» علـى ألمانيا منذ أربع سـنوات. كان يدرك أيضا، بغريزته أو بذكائه، أنها مسـألة وقت ليكتشـف الشـعب المسـلوب من كل شـيء، أن البقـرة التـي يرويهـا مـن عرقـه ودمه ويطعمها من لحمه وبؤسه لم تعد قادرة على إرضاع أحد غير المخرج المتذاكي وحاشيته، وأن ضرعها جفّ أخيرا.

كان لكل شيء طابور خاص به، إلا الذلة والموت، فهذان كانا يمنحان على الرحب والسعة.

ومـع أنهـا تذكـرت ذلـك، فلـم يبـد أنهـا تأثرت، واسـتمرت في شـرودها وتدخينهـا الـذي لـم يعـد يدهش أحدا فيمـا يبدو. كانت في عقلها تحلق على مدن الذكريات المحترقة. من هناك، لم تكن قادرة على أن تلمح أي مبنى يصلح للسكن. كل ما رأته خرائب وردم. ولم يكن أنفها يلتقط إلا رائحة الخيبة، تلك الشـبيهة برائحة العفن. ومع ذلـك، كانـت تأمـل أن تـرى أيـة خضرة تنزل إليها، أن تشـم أية رائحة تعيد إليها حاسة شمها التي لم تعد تحفظ إلا رائحتين: رائحة الخيبة ورائحـة الأسـر، تلـك التـي حفظتهـا بمجرد أن فتحـت فمها وأخبرت والدها بما حدث..

http://mzaj4.blogspot.com/

- اغتصبني عبد العزيز..

قالت بصوت خافت مختنق، فقد كانت تشعر بوخز في حلقها وهي تخرج كلماتها تلك.

- ماذا؟

زعق أبوها وقد جف ريقه فجأة، واستشرى الارتعاش إلى كامل جسده.

- عبد العزيز.. ا - غـ - ت - ص - ب - ن - ي.

قالت مجددا، إلا أن وخز حلقها هذه المرة كان أقل إيلاما، وكأنها حين نطقت بمصيبتها مرتين تخففت من وزرها. أتراها اعتقدت أنها حين تخبر والدها ستتحرر من مصيبتها للأبد؟!

- عبد العزيز ابن عمك؟!

سأل مذعورا. ولكنه لو تأمل سؤاله، لأدرك أنه كان على علم بخطورته، وإلا لمَ لمْ يخطر على باله إلا ابن أخيه، هذا الذي اتخذه ولدا بعد موت أبيه. هذا الذي ستر أمه وتزوج منها.

هزت رأسها فأظلمت عيناه.

صمت برهة وقد طأطأ رأسه يبحلق في الأرض. تماما كما كان يفعل حسان ربيعي، بيد أنه كان، على خلافه، يبحلق في كتاب بولاتوفيتش، تلك الرواية القاسية، الصريحة في مقت الوطن الإجباري.

كان الصمت لا يزال مطبقا على المقطورة الأولى، إلا أن حديثا هامسا كان يدور في كابينة السائق، على خطوات من مكان حسان ربيعي الخاشع في مطالعته.

- إذن، لا يوجد حل آخر؟

سأل السائق متحدثا في هاتفه النقال.

http://mzaj4.blogspot.com/

– فكرنا في كل شيء، ولم نجد إلا حلين لا ثالث لهما، إما أن تطلب من الركاب أن يكسروا النوافذ بالمطارق المثبتة، وفي هذه الحالة سيتطلب استعمال القطار لاحقا وقتا طويلا إلى حين إصلاح النوافذ، وإما أن نرسل إليكم فريق نجدة يعمل على فتح الأبواب يدويا من الخارج، وهذا أفضل حل.

– والركاب؟

– يستقلون قطار الديازال الذي يأتي مع فريق النجدة حتى محطة الجزائر.

– والذين في محطة الجزائر؟

– ما بهم؟

– هل تم التكفل بهم؟

– وما شأننا نحن بهؤلاء؟ يكفي أننا نعمل على تحرير الركاب المحتجزين في القطارات المتوقفة. أما هؤلاء فليذهبوا للجحيم، ألا يكفي أن نعمل في هذه الأوضاع المضطربة.

– صدقت، فلم أشهد طقسا أكثر رداءة من هذا.

– عن أي طقس تتحدث، البلاد تغلي وأنت تتحدث عن الطقس؟

– تغلي؟!

– ألم يبلغك الأمر بعد.. البلاد تحترق منذ ساعة.

– يا إلهي..

– الناس كرهوا، خرجوا إلى الشارع. كانت مسألة وقت فحسب.

– ماذا حدث؟

– كنت بساحة الشهداء منذ دقائق، خرجت لأشتري العشاء، ما دام أنهم أكدوا لي أنني سأداوم ليلا بسبب القطارات المتوقفة. لم

http://mzaj4.blogspot.com/

أصـدق مـا رأيـت: المتاريـس منصوبة في كل مكان، عجلات تحترق. بالـكاد تبينـت لـي الطريق مـع الدخان المتصاعد للعجلات المحترقة، حتى المطر الذي أغرق الشوارع لم يستطع إخمادها..

– يا الله..

صاح السائق مذهولا.

كان جالسـا بمقعد القيادة الجلدي ذي المسـند المتحرك، تقابله ثـلاث شاشـات مراقبـة، تتخللهـا أزرار صفـراء وحمـراء وخضـراء، ومصابيح كشف مغروسة بلوح القيادة على طرفي المقود. بدا مرتاحا علـى غيـر عـادة مـن يتحـدث علـى هاتف نقال. غالبا لأنه لم يكن هو من أجرى المكالمة.

– كنـت وقتئـذ قـد بلغـت موقـف الحافلات وقد دخلته من جهة باب عزون، لعلي أجد محل مأكولات خفيفة في الجوار، ولكنني لم أعثر على أي محل مفتوح. أنت تعرف هذه البلاد الزبل، تموت فجأة بمجرد أن يسقط القليل من المطر.

المهـم سـرت حتـى بلغـت سـاحة الشـهداء، وفـي نيتـي أن أبلغ محـل الكبـد المشـرملة وراء موقـف الحافـلات، ولكننـي مـا أن بلغته حتى وجدتني وسط ساحة حرب. الشرطة بعصيهم ودروعهم في جهة والشباب بحجارتهم في جهة أخرى. كان كل شيء يحترق، لم يترك الشـباب سـيارة أو عجلـة إلا وأضرمـوا النـار فيهـا، وفـي كل ذلك لم يتوقفوا قط عن رمي الشرطة بالحجارة.

– ورجال الشرطة ماذا كانوا يفعلون؟

– في البداية اصطفوا مشكلين صفين كل واحد يسند الثاني، ثم بدؤوا في التقدم ومكبرات الصوت تأمر الشباب بالانصراف، لكن لا

http://mzaj4.blogspot.com/

أحد كان يأبه بهم. وحين لم تجد أوامرهم آذانا وتعذر عليهم التقدم بدؤوا يطلقون الرصاص في الهواء والقنابل المسيلة للدموع.

توقف برهة وكأنه يستعيد أنفاسه، ثم قال وقد ارتخى صوته:

- ماذا أقول لك، «ربي برك ما حبش».

- المهم سلامة راسك.

- ربي يهديهم إنشاء الله. ولكن الله غالب، ماذا ينتظرون من شعب لا يجد شيئا.

- صحيح، لا عمل، ولا سكن ولا أي مستقبل. حتى من يعمل لا يكاد يمضي عشرة أيام من قبض الأجر حتى يستدين، وهم كأنهم ليسوا هنا، ولكننا نستأهل هذا وأكثر.

- وماذا تريدنا أن نفعل؟.. نصبر وربي يدير اللي فيه الخير.

- ألم تكفي ثمانية وأربعون سنة من الصبر. أقول لك بصدق، لم آمل أبدا لآمل الآن. لا شيء سيتغير. على الأقل لن يتحسن شيء.

- ربما بعد الذي حدث الليلة، ستستفيق الحكومة وتعمل على تغيير الأمور.

- كم أنت طيب يا صديقي. الحكومة تعلم بكل شيء منذ وجدت، ولن يهمها أن تحرق بلدية أو محكمة أو حتى البلاد كلها، ما دامت ستبني كل شيء من جديد من عرق الشعب. لا شيء سيتغير، كل ما في الأمر أن أحدهم سيطلع علينا في نشرة الأخبار ليهدينا وعودا، وسنصدقه لأننا راغبون في تصديقه، وبعد مدة سننسى مطالبنا ووعوده.

- لكن الذي يحدث من شغب واحتجاج، سيجبرها على أن

http://mzaj4.blogspot.com/

تحترم وعودها. لم نعد وحدنا يا صديقي، العالم كله ينظر إلينا ولن يسكت.

– قلت لك إنك طيب جدا. أتعرف ما سيحدث لاحقا، سأخبرك بالتفصيل الممل: سـيُهدِّئون من روع الشـعب ويعدونه بكل ما يريد، ثم حين يهدأ وسيهدأ حتما، يبدؤون في الإعلان عن محاكمة بعض الشـباب الذي اندس مع المحتجين، مسـتغلا الوضع لينهب ويسـرق. وفي النهاية سـيقولون إن ما حدث لا علاقة له بالشـعب وغبنه، إنما هنـاك أيـاد خفيـة حركـت بعض الشـباب المتهور لتحدث تغيرا ما في موازين السلطة. سنصدقهم كما فعلنا في الخامس أكتوبر حين صدقنا أن مناصري سياسة الرئيس المتفتحة من حركوا الشارع.

صمتا برهة وقد أدركا في نفس الوقت، ودونما اتفاق، أنهما تحدثا في أمور من الخطورة، ما يكون من الأفضل لهما أن يقطعا المكالمة. وإذ ذاك دعيا الله ألا يكون أحد قد التقط حديثهما الطيب الخطير.

http://mzaj4.blogspot.com/

-4-

لم يكن السائق مخطئا في شيء، ولم يكن بتلك البلادة التي تصورتها فيه منذ حين خالتي لويزة وحسان ربيعي. كان مدركا لطبيعة الشعب المسلوب من كل شيء، ويعرف بالضرورة كيف يفكر المخرج المتذاكي، هذا الجالس دوما وأبدا على كرسيه لا يتزحزح عنه. هذا الذي عرف منذ الأزل كيف يستوي على عرشه قبل حتى أن يخلق الاستواء.

حين قطع المكالمة، فكر في أن يكلم الركاب عبر مكبر الصوت عن قدوم فرقة النجدة، ولكنه سرعان ما عزف عن الأمر، فلا فائدة ترجى من إعلامهم بالوضع.

تأمل في منطق تفكيره فابتسم. لقد كان، دون إرادة، يفكر كما يفكر المخرج المتذاكي إزاء شعبه:

«ليس على الشعب أن يعرف كيف يدار الحكم، فلا فائدة ترجى من علمه.

ليس عليه أن يعرف من أين يأكل، وبكم يدين، وكم يملك.. فلا فائدة ترجى من علمه.

ليس عليه أن يعرف من يحكم حقيقة، ما دام يرى مخرجه المتذاكي في بدلته المستوردة وماكياجه الفاضح حاكما عليه.. فلا فائدة ترجى من علمه».

ولعله لو تأمل أكثر لأدرك أن كل الشعب المسلوب من كل شيء يفكر مثله، مثل مخرجه المتذاكي. حتى إنه، وإن لم يعترف،

http://mzaj4.blogspot.com/

كان مرتاحا بجهله. مقتنعا في قرارة نفسه بألا فائدة ترجى من علمه.

ربما لهذا تمنى الحاج القريشي لو بقي على جهله وصمت ولم يسأل «مليكة» ما حل بها، تمنى لو أنها لم تنطق أبدا ولم تخبره بما حدث معها.

- عبد العزيز؟..

صاح في داخله، وقد شعر بأن شيئا قد انكسر فيه للأبد.

حدثته نفسه بأن يحزن قليلا، لكنه أبى وأجل الحزن إلى أن يجد حلا لابنته.

قال لزوجته آمرا:

- كلمي ولدك في شأن مليكة. حبِّبي إليه الزواج منها دون أن تذكري له شيئا مما فعل، وكأنك لم تعلمي بأمر اغتصابه لها. قولي له لو يتزوج مليكة أهبه الدار والأرض.

لم تنبس بكلمة وتابع:

- من الأفضل لو يتوهم أنني لم أعلم بما حصل. سأكلم مليكة في الأمر وسترضى. أما أنت فأقنعيه بالزواج منها.

حينئذ نطقت زوجته دون أن تجرؤ على النظر إليه:

- يتزوجها غصبا عنه. ولا حاجة له بأرضك ودارك، أيفعلها وتجازيه؟

ابتسم بمرارة، وشفتاه لم تتوقفا عن الارتعاش:

- لن يفعل أعرف ابنك أكثر منك. كل ما سنجنيه فضيحة ستشطرني نصفين.

تابع:

- لن أجازف، افعلي ما أمرتك به.

http://mzaj4.blogspot.com/

لـم تعارضـه وانصرفـت. وكمـا تصـور، لم يأخذ التفكير من عبد العزيز دقيقة ليقبل الزواج من مليكة.

قال لأمه وقد قرأ في عينيها ما حدسه:

– إذا أخبرتك مليكة بشيء فثقي أنها تكذب. وحتى ترتاحي فأنا أعلم بما أخبرتك به وعمي القريشي. لم آخذها غصبا ولكن برضاها كما فعل الجميع.

– الجميع؟!

– الجميع، فليست طاهرة كما تدَّعي وإلا لما بقيت دون زواج حتى هذه السن.

تابـع وقـد شـعر بأنـه ميّـل قلب أمه إليـه. والحقيقة أنه فعل، فلم تكن أمه قد فكرت في الأمر من هذه الزاوية.

«صحيـح»، فكـرت، «مـا الـذي جعلهـا تعـزف عن الـزواج رغم العشرات الذين تقدموا لها؟».

لم تحتج لأكثر من الإصغاء لابنها لتخلص إلى استنتاجها الظالم: «لا بد أنها خشيت أن تفتضح ليلة دخلتها».

هكذا صدر حكمها دون أن تطلع ابنها أو زوجها القريشي عليه. ومع هذا حزَّ في نفسها أن يتزوج ابنها من عاهرة!

قالت تحدث عبد العزيز:

– مهما كان من الأمر، فهي ابنة عمك. استرها ودع أباها يسترك بماله.

– وما الذي يضمن لي أنه سيفي بوعده؟!

– أجننت؟!.. لا تُطلب من الحاج القريشي ضمانة. أنسيت أنه من آوانا بعد موت أبيك.

http://mzaj4.blogspot.com/

– لم يفعل أكثر من واجبه، ثم إنه يصرف علينا من مال أبي.

– لعنك الله.. متى ملك أبوك فلسا. لا أذكر له يوما عمل فيه بأي شيء. أحسن عمل قام به أن قتل نفسه، أراحني وأراحك.

صمت، حتى إذا هدأت أمه أضاف:

– ومع هذا فقد استولى عمي على إرث أبي من جدي.

– لم يترك جدك شيئا، بمجرد أن رحل مع أسياده الفرنسيين مع بقية «القياد»(*) من أمثاله، حتى صادرت الحكومة كل أملاكه. لولا عمك لمات أبوك جوعا حتى قبل أن أقابله. لعن الله اليوم الذي رأيته فيه.

– هذا ما أخبرك به.. صحيح؟ لا تصدقيه. لقد أخبرني جدي بكل شيء عندما زرته آخر مرة.

كانت تعلم ألا جدوى من مجادلته، حتى أنها لم تكن تملك وقتا لذلك، فالقريشي ينتظرها وينتظر رد عبد العزيز.

سألته:

– والخلاصة؟!

– يهبني الأرض والدار وبعدها أعقد على ابنته الفاسدة.

– تعلم أنه لن يثق في أن تبر بوعدك؟

– فلنشهد أعيان برج اخريص وعين طير الزين على ما اتفقنا عليه. لا أعقد عليها حتى يكتب لي.

وعلى هذا جرى الأمر، على أن يقام العرس بعد أربعة أشهر.

(*) جمع قايد: رتبة منحت للمتعاملين مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وهي رتبة عثمانية في أصلها.

http://mzaj4.blogspot.com/

-5-

فكّر السائق في أن لا طائل من بقائه في الكابينة، ففرقة النجدة قادمة لا محالة، والركاب سيُجْلون عما قريب، ولم يعد يجدي أن يبقى في كابينته المنيعة، فإذا أرادوا الاتصال به فسيكلمونه على نقاله، ما داموا يعلمون أن لا شيء يعمل إلا أزرار التحكم في الضوء ومكبرات الصوت.

وإذ همَّ بالخروج، صرت باب الكابينة، فانتشل صريرها حسان ربيعي من خشوعه حتى جفل كشاة ساعة النحر.

بدا مشدوها كمن يقوم من النوم على حين غرة، بعينين متشككتين وبشفتين مخدرتين ومبتلتين. وحين تيقن أنه فارق بولاتوفيتش، سحب ريقه وابتلعه بفظاظة، وحلقه يصدر صوتا كصوت بالوعة تشبعت بالأتربة والقرف.

نظر حوله، فشدته لوحة المعلومات المعلقة في السقف.

قرأ: الجزائر.

ثم اختفت الكتابة لتظهر أخرى: 18:45

ثم أخرى: 16° C

خرج السائق فدفع الباب ليغلقها فصرّت من جديد. هذه المرة كان صريرها أكثر حدة، فجفل حسان مرة أخرى، وعيناه لا تزالان معلقتين بلوحة المعلومات بأعلى السقف.

قرأ: لعين.

ثم اختفت الكتابة لتظهر أخرى: مقرف.

http://mzaj4.blogspot.com/

ثم أخرى: نتن.

وإذ ذاك سمع الصوت الغائر فيه يهمس له: «دعنا ننتهي هذه المرة».

نظر حوله مرة أخرى، فهاله أن كل شيء قد اختفى، وكأن الظلمة حوله ابتلعت كل شيء. ولكنه تذكر الصرير فنظر صوب الباب، فرأى ضوءا خافتا يلج الظلمة حتى ابتلعها بدوره.

تكشف له رجل مكرّش ببدلة شنغاي يقف بجانب الباب. كان وجهه أحمر كريها، بأنف مدبب وذقن سيئة الحلاقة.

تقدم خطوتين نحو الطفل الجالس على الدرج الإسمنتي البارد، ينتظر الخلاص. ابتسم له، فابتسم الطفل سعيدا بالنجاة.

«يا إلهي.. أهرب بجلدك، لا تخرج معه..».

كان حسان يصرخ آملا أن ينقذ الطفل الذي كانه لئلا يصبح هو. لكن صوته لم يصل سواه.

حينئذ، سمع الصوت الغائر فيه: «لن يسمعك أحد، لست هنا لتنقذه، بل لتنقذ نفسك».

تجاهله واستمر في الصراخ. وحين خرجا تبعهما حتى بلغا رواق الأقسام، فسمع الرجل ذي الوجه الأحمر يقول:

- ابق هنا، سأذهب لأكلم المديرة في الهاتف وأعود.

صدّقه الطفل، فدخل القاعة وجلس ريثما يعود الرجل ذو الوجه الأحمر الكريه.

سأله الصوت الغائر فيه:

- أتودّ أن نواصل؟

كانت هذه أول مرة يسأله فيها.

http://mzaj4.blogspot.com/

أجـاب وقـد تضببـت عينـاه فجـأة، وتحول صوتـه الصاخب إلى همس بالكاد يسمع:

- وما الفائدة.. أعرف ما سيحدث.

- تعرف ولكنك لا ترغب في الاعتراف بما حدث.

- وما الجدوى من الاعتراف. لن يتوقف الألم ولن تكف أنت عن الكلام.

- ربما إذا واصلنا يتوقف الألم وأرحل عنك.

- هذا مجرد هذر..

- ماذا ستخسر.. دعنا نواصل.. دعنا نواجه ما حدث.

صمت برهة وتابع:

- أتسمع؟

- إنها الخطوات ذاتها، تلك التي خيِّل إليّ أنني سمعتها في القبو.

- تقصد تلك التي سمعها الطفل الذي كنتَه..

- ما الفرق، كلانا واحد.. هو أنا.

- لسـت هـو فـي شـيء. أنـت تعـرف أنه مات منـذ ثلاثين عاما، مات يوم ولدت أنا وولدت أنت.

- أيموت وأنا حي؟!.. دعنا من سخافاتك هذه.

- مات.. صدقني، أما أنت فلست حيا كما تعتقد، خلتك مدركا أنك على قيد الحياة فحسب.

وأضاف:

- أصغ إلي جيدا أيها الأحمق. لا وقت لدينا، الخطوات تقترب وعليك أن تقرر.

- أقرر ماذا؟

http://mzaj4.blogspot.com/

صاح حتى شعر باختناق صوته.

- عليك أن تنقذ نفسك؟

- لكنه لا يسمعني لأنقذه.

- أما زلت مصرا على أنه أنت؟ لسنا هنا لننقذه بل لننقذك أنت.. أنت هنا لتنقذ نفسك.

- يا إلهي أي معتوه أُحدِّث؟.. قلت لك كلانا واحد.. أنا هو، وهو أنا.. أهذا شيء يصعب فهمه؟

- لم يعد أنت منذ قررت أن يموت، تركته يموت منذ قررت الصمت، منذ قررت أن تنسى.

- لم أنسَ. صمتُّ فحسب.

- وما الفرق ما دمت تخليت عنه، مثلما تخلت عنك أمك؟

- مهما يكن، دعني أصحح الأمر إذن، دعه يسمع صوتي، دعني أنقذه.

- لن يتسنى له أن يسمعك، لن يسمع إلا صوتي وصراخه بعد حين.

- أرأيت؟ يسمعك في رأسه كما أسمعك أنا.. حتى أنت تعرف أن كلينا واحد، تعرف أنني هو.

- ألا تفهم؟ مات منذ ثلاثين سنة، حين صمتَّ ودعوتني.

- لم أدعك، أنت من اقتحمني كما اقتحمني...

وأمسك لسانه كأنه على وشك أن يزلّ.

- قلها ولننته من كل هذا. قلها واعترف لنفسك وكُفَّ عن الصمت.

- ما حدث قد حدث ولن يفيد اعترافي شيئا.

http://mzaj4.blogspot.com/

- وما دمت تعرف هذا، فلم أنت راغب في أن تسمعه صوتك؟
- أنت من أعادني.. ماذا تريد مني؟

توقف الصوت عن المجادلة.

فكر: «لا بد أن ثمة طريقة أخرى لإنقاذه». ونظر صوب القاعة التي دخلها الطفل الذي كانه منذ حين.

لم يصدق نفسه وهو يسمع الصراخ الصادر منها..

فكر من جديد: «متى.. كيف دخل الرجل ذو الوجه الأحمر الكريه هذه القاعة؟». ومدّ يده إلى مقبض الباب ليفتحها، وما كاد حتى انقطع الصراخ.

سمع الصوت من جديد:

«أنت مثلي نتن

مثلي مقرف

مثلي لعين».

لم يهتم به وأدار مقبض الباب ودخل.

وإذ ذاك، همس له الصوت الغائر فيه: «إذن فقد قررت أن نواصل».

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل السادس

حكايات قاع البئر

-1-

لم يشعر بالتعب حتى وضع دبره المسطحة كلوح تزلج متهرئ على كرسي خشبي من غير مسند ظهر، تركه متعمدا بجانب آلة البريس إيطالية الصنع. أسند ظهره إلى الحائط ومدّ ساقيه، فشعر بتدفق الدم يسري فيهما من جديد، وبألم خفيف وخز ركبتيه سرعان ما اختفى.

لم يعر الأمر انتباها، مادام نفس الشعور ينتابه كلما انتهت مداومته وجلس حيثما هو جالس الآن، يحشو شفته العليا بالتبغ ويدخن سيجارة من تلك التي يعطيها له صاحب المقهى.

إلا أن وجهه الأسمر، المربع ذا الذقن غير الحليقة بدا أكثر راحة، فقد انتهى دوامه قبل موعده بساعتين. يمكنه الآن أن يغسل آلة البريس ويمسح الكنتوار الخشبي، حائل اللون، في أقل من نصف ساعة، ثم يجمع الطاولات وكراسيها ويكدسها فوق بعضها في زاوية من المقهى، ليتفرغ لمسح الأرضية ذات البلاط المرقع الشبيه بفرو كلب دلماسي قذر. لن يستغرق الأمر، برمته، أكثر من نصف ساعة أخرى، وبحساب الوقت الذي يقضيه في الاستحمام وأكل شيء يخرس جوعه سيكون في فراشه قبل الثامنة ليلا.

سأل بصوت خافت وبفتور معلمَه الواقف بجواره، لا تفصلهما

http://mzaj4.blogspot.com/

إلا آلة الكونتي الإيطالية:

- هل سيبيت الليلة هنا؟

وأشار بعينيه إلى شيخ يرتشف فنجان قهوة يجلس بمفرده ويدخن.

لم يجبه «المعلم» واكتفى بالنظر نحوه وشفتاه ويداه تتحركان بشكل متناغم ورتيب، يعد الفكة ويحفظ العد.

قال وهو يلقي بآخر قطعة نقود داخل صندوقه الحديدي:

- قم وخلصنا.. لن تنظف المقهى نفسها. على الأقل اشغل نفسك بأي عمل تحلِّل به دراهمك عوض أن تحشر أنفك فيما لا يعنيك.

ثم تقدم منه أكثر وأضاف:

- سيبيت الليلة هنا إن شاء، هو في السقيفة وأنت تحت في الصالة، لهذا فمن مصلحتك أن تفرك الأرض بالفعل، لا كما اعتدت أن تفعل كل مرة.

لم ينبس النادل بكلمة وهو يرى تعكر مزاج المعلم. حدس أن ما وجده في الصندوق لم يعجبه أو لم يكن كعادته.

ابتسم له وألقى بسيجارته التي أحرق نصفها، ثم عفسها وهو يتمتم بسخط، يكلم نفسه. ثم قام إلى آلة البريس ينزع مقابضها ومصافيها، يضعها على جنب.

خاطبه المعلم من جديد:

- في الصندوق أربعة آلاف دينار، ألف موزعة على اللوح والباقي تجده تحته في كيس أسود. فكة تكفينا اليوم كله بحول الله.

http://mzaj4.blogspot.com/

– مـا دمنـا نملـك كل هـذا القـدر، فلِـمَ كنـت ترسـلني كل حين بحثا عن الفكة.

– لأنني، يا غبي، لم أجد في الصندوق حين وصلت مساء إلا أوراق المائتين والخمسمائة، ولولا أن أرسل الله لنا تلك المرأة الطيبة، لكنت أرسلتك الآن تحت النار بحثا عن الفكة. من حسن حظك أنها قدمت في تلك الساعة بدل الصباح كما اعتادت.

وتابع:

– المهـم، لا تعمـل حسـابي غـدا حتـى الغـروب ولا تبـدأ فـي التشكي.

– ولكن..

– قلت لا تبدأ في التشكي، أعوضها عليك هذا الشهر.

لم يشأ أن يعلق، ولكنه سرعان ما خطر على باله أمر.

– وماذا إذا استمر هياج الناس غدا؟

– حينها اسعد أنت بنومك وأنا بما كتبه الله لي.

وتقـدم حتـى إذا بلـغ مكان الشـيخ الذي أشـار إليـه النادل للتوّ. قال هازئا:

– أما زلت تدخن روث البقر هذا؟

وطفق يجلس بجواره.

– وماذا كنت تخال أنك واجد في زريبة كهذه؟

وحرك رأسه يمنة ويسارا، وكأنه يشير إلى صالة المقهى.

قال الشيخ وقد رفع عينيه عن جريدة كان يقرؤها.

– على الأقل، رائحة سجائري أهون من رائحتي مرحاض مقهاك المسدود منذ قرن، وقدمي نادلك النتنة.

http://mzaj4.blogspot.com/

ضحك المعلم، وألقى بعلبة سـجائر على الطاولة، حيث كانت جريدة الشـيخ مبسـوطة ومنفضة سـجائر متخمة بالأعقاب وفنجان لم يبق فيه من القهوة إلا رغوة في قاعه.

قال المعلم باسما:

- خذ واحدة من هذه، ربما تتذكر أيام زمان.

- إيه يا رابح، تلك أيام لن تعود.

تنهد وسرحت عيناه لوهلة، ثم تابع:

- ومع ذلك، لا ترفس النعمة أبدا.

وسحب سيجارة من علبة الدنهيل الخضراء. ثم أخذ نفسا عميقا حتى احمرت شعلتها وزفره من منخاريه ومن فمه دخانا أبيض، تكدس فوق رأسه كساحبة عابرة.

قال وهو يغلق الجريدة ويضعها جانبا:

- سترتني، سترك الله.

- لا عليك، فخيرك أسبق.

- الخير؟!.. لم أفعله في حياتي ليسبق خيرك.

- يا رجل، لعلك نسـيت حين آويتني لما قدمت إلى العاصمة أول مرة.

ضحك الشيخ وربت على كتفه.

- ليس حبا في عيونك أيها الأحمق!

- أعرف، ولكنك كنت أول من آواني بعد شهر قضيته كالكلب الجرب.

- وها أنت الآن صاحب المكان.

- والحمد لله.

http://mzaj4.blogspot.com/

- ولسوء تدبيري أيضا.

قال ذلك بمرارة من لم يعد يؤمن بجدوى التوبة.

- تلك أيام ذهبت، ولا فائدة ترجى الآن من الندم. على الأقل فقد عشت أيامك بطولها وعرضها.

- عشتها كما أحببتُ، وأنا الآن أعيش سوء الخاتمة.

- تريد أن تقتل نفسك أو تشل؟!.. دعك من هذا الكلام واستغفر الله.

- أنا في السبعين يا رجل، ومن كان في مثل سني وحالتي لا رحمة له إلا بالموت..

تابع باستهزاء:

- ولكن، أتعتقد أن عزرائيل يقبل بمنحي بعضا من وقته؟ أستأهل هذا وأكثر.

- الآن ستبدأ في سرد قصصك السخيفة عن دعوات أمك عليك، وكيف ماتت غير راضية عنك.

وضحك ضحكا متكلفا.

- وكيف تعتقد أنني بلغت قاع البئر يا أحمق.

وأضاف بشيء من العزاء:

- خنت عمي وخالفت وصيته، وبسببي تشردت ابنته وماتت أمي غير راضية عني، ويا ليتها كانت هذه كل جرائمي..

- أعرف، ولكنك...

قاطعه:

- حتى أنني أملك ولدا لم أره ولم يرني.

- ومع هذا، ما زلت مصِرا على أن لا فائدة من الندم الآن.

http://mzaj4.blogspot.com/

قضي الأمر وانتهى.

– لـم ينتـه ولـن ينتهـي أبـدا، مـا دام هذا ما أصحو عليه وأمسـي به كل يوم.

وكأنه أراد أن يلطف الجوّ، قال:

– والله أنت لا تصبح ولا تمسـي منذ شـهر إلا على وجه هذا الخنزير.

وأشار برأسه إلى النادل الذي كان مشغولا بغسل آلة البريس.

– قل: لا أمسي ولا أصبح إلا على رائحة قدميه ولثَّته النتنة.

واستدرك يسأل:

– قل يا رابح. ألم تسأله من قبل عن سبب نتانته؟

– لم أفكر في الأمر لأسأل.

وضحك كأنه يعلم بما سيقوله الشيخ.

– أنا لم أفعل ولكنني عرفت سبب تلك الروائح التي تصدر منه.

– لا تقل لي إنه أكل جرذا أو ابتلع جوربا وسخا!

– لـم يفعـل.. المسـكين ولـد مـن دُبرٍ وسـقط فـي مرحـاض كمرحاضك المسدود هناك.

http://mzaj4.blogspot.com/

-2-

لم يسمع نمّهما، وما كان ليشغل نفسه بحديثهما وبينه والفراش عمل ساعة كاملة من الغسل والمسح والفرك.

رفع رأسه إلى حيث ساعة الحائط معلقة فوق آلة البريس. كانت السابعة إلا ربعا.

فكـر: «آخـذ كل وقتـي، فغـدا لا عمـل ولا هم يحزنون. لن يهدأ الشـباب على ما يبدو، ولعلهم يسـتمرون في شـغبهم أياما أخرى».

فكر في ذلك وفي رأسه ذكرى قديمة لشباب خرجوا منذ اثنين وعشـرين عاما إلى الشـارع لنفس الأسـباب. فحين خرجوا، راج أنها مسألة ساعات ويهدؤون، لكنهم لم يهدؤوا حتى وجد لهم المخرج المتذاكـي حقنـة تخديـر أخـرى، لا يعلـم إلا الله كيـف اهتدى إليها. وحين حقنهم بها شعر الشعب المسلوب من كل شيء، أن خروجه من أجل العمل والخبز والزيت والسكر، ومن أجل أن يشطب «الطابور» من قاموسـه، لم يعد مهما. ثم تخيل أن تلك العاهرة التي عرَّفه بها المخرج المتذاكي، تلك المسماة «حرية»، قادرة على إسكانه وإشباعه ومداواته.

هكذا قبل الشعب المسلوب من كل شيء أن يصبر على جوعه وعريه وتشرده، إلى حين أن تدخل تلك العاهرة منزل كل فرد منه. ولكنها، على خلاف ما توقعه، كانت في كل مرة تدخل فيها على أحدهـم، تظهـر بوجـه غيـر وجهها الـذي أراه المخرج المتذاكي له

http://mzaj4.blogspot.com/

أول مرة. لم يسأل الشعب المسلوب من كل شيء حين أخبروه أن هذه طبيعتها، ولم يعد يدهشه أن يراها عارية أو نصف مستورة أو سافرة أو متحجبة أو متجلببة أو كل هذا في الوقت ذاته. لم يعد يدهشه عدد عشاقها وراكبيها: اليساريون، اليمينيون، المؤمنون، الملحدون. لم تكن تفرق بينهم وكأنها عذراء لا تميز بين الفحل والعنين.

لم يدهش الشعب حتى حين كان يراها تستر سوءتها بالعلم الذي قيل له إنه علم الوطن الإجباري، ولا حين كان يراها تجلس على حجور رجال، علم لاحقا أنهم «أصحاب الثورة: شهداء ومجاهدون».

لم يدهشه كل هذا. ولكن الذي أدهشه لاحقا، كيف رفست كل رجالها وقبلت أن تقسم أيامها بين «أصحاب الله» و«أصحاب الثورة»، لتعود في الأخير إلى المخرج المتذاكي، وكأنها لم تخرج من بين يديه أبدا.

* * *

- وكأنها لم تخرج من بين يديك أبدا.

قال المعلم رابح، وقد رأى في عيني الشيخ ما يشبه الندم وهو يتحدث عن أيام عزه في المقهى.

- ولكنها خرجت.. وإلى يديك.

- بعرقي وبرضاك، لم أضربك على يديك لتبيعها لي.

- أكون مجنونا لو بعت هذه المقهى برضاي. من يفرط في مغارة علي بابا، ولكنها الديون ونقص الحيلة.

- ومع هذا لم أجبرك على بيعها بنصف الثمن. أنت من باع وأنت من قبض.

http://mzaj4.blogspot.com/

– أنـا مـن بـاع، ولكـن غيـري مـن قبـض. لعـن الله أيـام القمار والعاهرات.

وأضاف بأسى:

– أرأيـت تقلـب الأيـام؟ مـا زلـت أذكر حين جئتني تطلب عملا أول مرة.

– تلك أيام رميتها في المرحاض، ولا أرغب في تذكرها.

ضحك الشيخ وعلق ساخرا:

– ربما لهذا سُدّ إلى الأبد.

تكلف المعلم رابح الضحك دون أن يرد.

– لم يكن بينك وهذا المُقمّل،«وأشار إلى النادل»، فرق.

تابع وهو يحدق فيه باحتقار:

– الآن صرت المعلم وأنا الضيف، بل وتتعالى على أن تضيّفني في بيتك وتجعلني أبيت مع هذا النتن وبمقابل أيضا.

لـم يعلـق المعلـم رابح بشـيء، وقـام كأنه راغب في الانصراف. ولكن الشيخ استمر في حديثه:

– أعرف أن مجرد قبولك بي هنا مزية بذاتها.

– لا مزية يا رجل، فبيننا ملح وخبز.

ثم تابع بشيء من الشفقة:

– ما رأيك أن تبيت عندي الليلة، نتسامر حتى الفجر، فلا أنوي العمل غدا.

ضحك الشيخ، فبان نابه الفضي، آخر ما تبقى من أيام عزه.

قـال وهـو يسـحب سـيجارة أخـرى من علبة الدنهيـل، ملقيا بما تبقى من السيجارة الأولى على الأرض:

http://mzaj4.blogspot.com/

– الليلة يا خبيث أبيت عند ابن خالتي في الدرارية، ربما غدا إن أطال الله أعمارنا.

– يطيلها إن لم يقصرها هؤلاء الأنذال.

– من تقصد؟!

– هؤلاء الذين في الخارج. أجبرونا اليوم على أن نغلق المقهى قبل الوقت بساعتين، والله يعلم ما هم فاعلون غدا.

– لم يخرجوا إلا بعد أن ضاقت بهم السبل.

– وستضيق أكثر إن لم يتوقفوا. أخبروني أنهم أحرقوا كل ما يصلح إحراقه في باب الواد وساحة الشهداء، وأن بعضهم يقطع الطريق على الناس ليسلبهم هواتفهم وأموالهم.

– ليس هؤلاء إلا بعض اللصوص ممن تقابلهم كل يوم. لا شأن لهم بمن يطالبون الحكومة بالعدل.

– الحكومة؟! وما شأنها بهم. صدقني، هؤلاء العاصميون مجرد كسالى لا نفع يرجى منهم. انظر حولك مثلا، هل رأيت تجارة أو مصنعا محترما يملكه عاصمي؟ صدقني لا ينفعون إلا للنميمة والكلام والتشكي من الحكومة والتمرد عليها. أما العمل فهم آخر من يبحث عنه.

– في هذا مبالغة.

– لا مبالغة على الإطلاق. ألا ترى من يملك المطاعم والمقاهي ومحلات البقالة وتجارة الجملة، لا أحد منهم عاصمي، اللهم إلا إذا ورثها عن أبيه وشغل غيره فيها أو أجرها.

وأضاف بحقد:

– أتعلم فيما يشتغل العاصميون: في هدر الوقت والتباهي بانتمائهم إلى العاصمة. يسموننا «الكوافا»، «الكعب»، «الشبارك»

http://mzaj4.blogspot.com/

و«الدبارش». حتى هم لا يعرفون ما تعني هذه التسميات. أما نحن فلا نضيع وقتنا في مناوشة الحكومة والحديث في السياسة، لأنه منا تكون الحكومة ونحن من يصنع الساسة والسياسة، ونحن من يملك العاصمة، شاءوا هذا أم أبوا. أنا دخلت العاصمة قبل عشرة أعوام فقط وامتلكت فيها شقة ومقهى وأنت أيضا كنت تملك ما لا تحصيه آلة حاسبة، أما هؤلاء الكسالى فيقضون حياتهم في مراقبتنا كيف نثرى وكيف يزدادون فقرا.

كان يتحدث بحقد وغضب، والبصاق يتطاير من فمه كطفل منغولي بليد.

قام الشيخ وقد انقبض قلبه من كلام المعلم رابح. لم يكن مستاء منه بقدر ما جعله كلامه الحاقد يتذكر وجها خال أنه نسي ملامحه، فهو وإن لم يجهر بكرهه للعاصميين، فقد كان في سره يبغضهم كل البغض. ومع هذا، ما كان يمكنه احتقارهم، ببساطة لأنه كان يعلم أن أسمى غاية يرجوها أي قروي وإن كان ثريا، أن ينظر إليه الناس على أنه عاصمي أصيل. وإلا لمَ يتخلى العائدون من حيث أتوا عن لهجاتهم ولكناتهم بمجرد أن تطأ أقدامهم العاصمة، ولمَ كلما بلغوا مشارفها ينزعون عنهم برانيسهم وقمصانهم، ويتنكرون لجلودهم وكأنها ليست لهم.

وإذ تذكر وجه الحقد الذي خال أنه نسي ملامحه، ارتسمت في رأسه صورة حقد عرفه ذات عام، كان فيها بوجه هو أكثر أوجهه بشاعة.

كان في تلك الصورة واقفا بين صبية أكبرهم لم يحتلم بعد، يحدثهم فيضحكون.

مدّ يده إلى جيبه وأخرج حبات حلوى وسلمها لهم. قال وهو

http://mzaj4.blogspot.com/

يحثهم بتبشش:

– كمـا اتفقنـا. اذهبـوا الآن وافعلـوا مـا أمرتكم به وبعدها أعطي كل واحد «مية دورو».

وانطلـق الصبيـة كالريـح، بعضهـم كان منتعـلا ومعظمهـم حافي القدمين.

وما لبثوا أن بدؤوا بالصياح مترنمين:

«مليكـة.. أيـن أنـت يـا مليكة.. أخرجي يـا عاهرة برج اخريص، يا امرأة الجميع..».

كانـوا يصيحـون ويرشـقون نوافـذ بيـت مـن الترنيـت بالحجـارة والطيـن، حتـى اكتحلـت جدرانـه الجيرية البيضاء، ولم ينج زجاج أي نافذة من الكسر.

كان رجال القرية يقفون على بعد أمتار منهم، بعضهم فاغر الفم وبعضهم يبتسم، وكأنهم يشاهدون فيلما لا يعنيهم منه إلا المشاهدة.

قال أحدهم:

– أرأيتم ما فعلت ابنة القريشي في أبيها الصالح؟

أجابه شيخ مسن قارب السبعين:

– كان اللـه فـي عونـه. ولكنـه سـبب فسـادها، لو لـم يدللها لما فضح بمثل هذه الفضيحة.

تدخل ثالث:

– القريشي رجل مؤمن، حتى سيدنا نوح ابتلاه الله بامرأة فاسدة.

واستمر الرجال في مشاهدتهم وتشفيهم وشفقتهم. استمروا كما استمر الصبية في رجم دار القريشي والصياح بمليكة، ثم تجمعوا تحت نافذة غرفتها يرددون أغنية ماجنة كأنها كتبت لأجلها:

http://mzaj4.blogspot.com/

«تيكة تيكة يا مليكة

اعطيني نيكة

فوق المطرح، زبي يفرح».

كانـوا يغنـون والرجـال يضحكـون، حتـى ظهر القريشـي بعكازه وانحناءته أمام الباب، فاختفى الصبية وكأن الأرض ابتعتهم، وتوقفت ضحكات الرجال وتفرقوا.

كل الضحـكات توقفـت، إلا ضحـك رجـل وقف ينظر من بعيد، فقد كان يضحك دون توقف.. كان يضحك كالخطيئة.

http://mzaj4.blogspot.com/

-3-

تذكر وجهه حينئذ، فهاله ما قد يصنع الحقد في صاحبه. ولكنه لم يشأ أن يغوص أكثر في الماضي، فلا العمر ولا الصحة يسمحان بذلك. على الأقل لم يكن مجبرا ساعتها على أن يتذكر كل خطاياه، تلك التي أوصلته إلى هنا: شيخ يشحذ اللقمة والمبيت.

كان يعلم أن لحظة الاعتراف لم تحن بعد، تماما كحسان ربيعي حين مد يده إلى المقبض وفتح الباب وهو يظن أنه حين يلج القاعة سيجد الطفل الذي كانه وينقذه، ولكنه حين فتحها لم يجد غير العتمة. حتى الصوت الغائر فيه لم يكن يتوقع ذلك. كان يخال أنه حين يدخل القاعة، فإنه سيواصل.

وإذ ذاك سمع حسان ربيعي صوتا من بعيد:

- أأنت بخير يا ولدي؟

شـرّع عينيه، فإذا بوجه خالتي لويزة يرتسـم على مقلتيه وخلفها حشد عظيم.

نظـر إلـى نفسـه، فذعـر أنـه لم يعد يـرى القاعة التي دخلها للتو، ولا الباب التي فتحها منذ حين، ولا حتى الظلمة التي عانقته بمجرد أن تخطى عتبة القاعة.

«عدت إذن!».

دمدم وهو يجول ببصره ليرى ما حوله.

كان فـي كبينـة السـائق ممـددا علـى الأرض. وجهه مبتل وأزرار قميصه الأزرق مفتوحة.

http://mzaj4.blogspot.com/

قالت خالتي لويزة بشيء من الشفقة:

- لا بأس عليك ولدي، أترغب في القليل من الماء؟

حرك رأسه أن «لا». ومد ذراعه إلى السائق الذي كان منحنيا فوقه يحدق فيه. وحين ساعده على الوقوف أسنده حتى خرجا من الكابينة، وعاد حسان يجلس حيث كان منذ دقائق.

تمهل السائق حتى رأى حسان ربيعي يستعيد نفسه وقال:

- إن لم تكن مستريحا هنا فلا بأس أن تستلقي في الكابينة.

شكره حسان بابتسامة لا طعم لها وتمتم «لا بأس». قالها بامتنان.

صاح السائق بالركاب المتجمعين حول حسان ليلتزموا أماكنهم. صاح بهم:

- على الرجل أن يستريح. ليس هناك ما يستحق المشاهدة.

لم يجادلوا وانصرفوا متمتمين وهامسين، إلا أمين قرللو وخالتي لويزة وبالطبع السائق الذي بمجرد أن أغلق الكابينة بالمفتاح حتى جلس بجانب أمين.

قالت خالتي لويزة بفم جاف:

- من الخطأ أن لا تحمل معك حبوبك وأنت تعرف حالتك.

- منذ مدة لم أصب بالصرع. أعتقد أن احتجازي في القطار يجعلني على غير ما يرام.

تدخل السائق:

- بهذا الشأن لن تمر دقائق حتى تقدم النجدة. لقد أكدت لي الإدارة أن قطار ديازال سيحمل الركاب إلى محطة الجزائر بعد أن تعمل النجدة على فتح الأبواب من الخارج.

قاطعه أمين قرللو:

http://mzaj4.blogspot.com/

- ومـا حاجتنـا للنجـدة، نفتحهـا من الداخل ونسـير على أقدامنا حتى المحطة. لا أعتقد أنها بعيدة من هنا.

- وهل ستدفع خسائر الكسر من جيبك يا ابن أمه.

صمت أمين قرللو ولم يضف كلمة. في حين تابع السائق:

- مهما يكن، فلا حاجة للتعجل والعاصمة تحترق.

- تحترق!

صـرخ الجميـع، حتـى حسـان ربيعـي المصـروع منذ حين صرخ معهم، وكأن الدم عاود الجريان في عروقه.

- هذا ما أخبرني به زميل لي في العمل.

- وماذا قال بالضبط؟

سـألته خالتي لويزة ودفعت بجسـدها نحوه، حيث كان يجلس على المقعد المقابل، حتى لامست ركبتاها ركبتيه.

- قـال إن الشـباب خرجـوا إلـى الشـارع، يحرقـون ويكسـرون ويرجمـون الشـرطة بالحجـارة، وهـم الآن يقطعـون الطرقـات في كل مكان.

- وما الذي أخرجهم؟

سأل أمين قرللو ببلادة.

- وما الذي سيخرجهم غير وضع البلاد؟

قالت خالتي لويزة وهي تحدق في ابنها بغضب.

تابعت:

- المساكين، لا يعلمون أن الأمور محسومة برضاهم أو غصبا عنهم.

- محسومة؟

http://mzaj4.blogspot.com/

سأل حسان ربيعي وقد استعاد صوته واستفاقته.

– محسومة في كل شيء، حتى وإن قامت ثورة وسقط النظام وجاء نظام آخر.

– كيف؟

– لا أعرف كيف أشرح الأمر، ولكنكم تلاحظون أن الأمور لا تتقرر في مجلس وزراء أو حكومة. كل شيء يتقرر في مكان آخر، ربما على هذه الأرض وربما في الخارج. لن أدعي أنني أعرف كل شيء، ولكنني واثقة أن كل سلطة تحكم البلاد وإن كانت سلطة ينتخبها الشعب لا بد وأن ترضخ لأوامر عليا.

– هذا حديث مللنا منه ومن الهذر التمادي فيه.

علق أمين قرللو بشيء من التذاكي.

أضاف هازئا:

– ستحدثيننا الآن عن حزب فرنسا وعن التآمر على الجزائر وعن ديغول وكيف ترك عملاءه ينخرون البلاد.

– لم أومن بذلك سابقا لأومن به اليوم. كل ما أريد قوله إن هؤلاء المساكين خرجوا لمخاطبة سلطة رسمية يرونها على الورق وشاشات التلفزيون. كان يجدر بهم مخاطبة من يصنعون القرار فعلا. هم من يقررون في النهاية، على الأقل يقررون في حياة هؤلاء البؤساء.

– وأين نجدهم، ما داموا متخفين كما تقولين؟

– لا أدري، ربما إن بحثنا جيدا سنجدهم، ولكن على الحكومة أن تخلي بينهم وبيننا. عليها أن تفهم أن الشعب لم يعد قاصرا ويقدر على أن يتفهم الأسباب التي جعلتها تضع يدها في أيديهم. لا أحد صار يقبل بالقتل باسم الدين أو الإيديولوجية ولا حتى باسم الديمقراطية. كل ما يرغب فيه الناس أن يعيشوا بسلام وكرامة. يمكننا أن نغفر لها

http://mzaj4.blogspot.com/

إذا اعترفت لنا بخطئها ولن يطالبها أحد بالرحيل، بل ولن يعترض أحد على أن يحولوا الجمهورية إلى مملكة أو إمارة إذا أرادوا، ما دمنا نضمن حدا أدنى من الحياة بسلام.

- تعنين القوت؟

سأل أمين.

- تعنين العمل والسكن؟

سأل السائق بدوره.

- إنها تعني أن يُبقوا على حد معقول من آدميتنا فحسب.

قال حسان ربيعي متنهدا وفي فمه ما يشبه المرارة.

http://mzaj4.blogspot.com/

-4-

«المرارة»..

هذا ما شعر به الحاج القريشي وهو يصغي لصياح الصبية خارج الدار. وهذا ما كان يخِزه كلما لقي الناس في السوق والمسجد، حتى اعتزلهما كما اعتزل ابنته مليكة.

لم يعد واثقا من شيء وقد مضت ستة أشهر وعبد العزيز النذل يستمر في التملص من الزواج، حتى برزت بطن ابنته ونشرت فضيحته في كل بيت.

كان قد مضت تسعة أيام منذ اعتزاله الناس، حين جاءته زوجته من عند ابنها.

قالت بوجوم:

- لن ينفع اللين معه يا حاج. ادع إليك أخواله لينظروا فيه.

حدّق فيها، وكان مستلقيا على جنبه فوق حصير وبيده مصحف صغير.

تراءى لها أنه نحل أكثر منذ رأته ساعة الفجر، حتى أنها بالكاد عرفت صوته وهو يقول:

- لا فائدة من ذلك الآن. بعد أن كتبت له الأرض والدار، لم أعد أملك شيئا أضغط به عليه. كم كنت معتوها حين تصورت أنه سيفي بوعده.

- أخبرتك ألا تفعل ولكنك لم تصغ إلي.

وأضافت بأسى:

http://mzaj4.blogspot.com/

- حتى مليكة لم تصغ إلي ولم تقبل بإجهاض ما في بطنها في شهرها الأول.

- أتصححين حراما بحرام؟!.

- أفضل من أن يأتي ما في بطنها إلى الدنيا من دون أب يمنحه اسما.

صمت القريشي برهة وقال:

- مهما يكن، لا جدوى من الحديث في ذلك الآن.

تابع بحزن:

- في رأس عبد العزيز أمور أخرى.

- والعمل؟

- كل شيء بيد الله، ولكنني أفكر في أمر، ربما يكون فيه كل الخير.

وجنح للصمت برهة.

- أخبرني لعلي أشير عليك.

قالت وطفقت تجلس بجواره على الأرض الإسمنتية العارية ويداها تتلهيان بفرك ما تبقى عليهما من عجين الخبيز.

- أفكر أن أجعل ما في بطن مليكة ولدي.

- ولدك؟

- أسجله على أنه ولدنا في البلدية.

صعقتها الدهشة، حتى بالكاد وجدت لسانها:

- ومن سيصدق أن امرأة عجوزا في الستين تنجب؟

ابتسم بطيبة وقال:

- لا أحد، فليس المقصود أن يصدق الناس أو لا يصدقوا.

تابع وهو يستوي جالسا:

- انتهى الأمر. الجميع هنا يعرف أن مليكة حبلت من غير زواج،

http://mzaj4.blogspot.com/

ولعل كل الأهل في برج اخريص والهاشمية وعين بسام وحتى في البويرة علموا بفضيحتي، ولا جدوى الآن من التستر. كل ما أفكر فيه أن أضمن لولد مليكة اسما ونسبا، لا أن يسجل على أنه لقيط.

- ومليكة؟

- أرسلها إلى العاصمة. لن تعدم وسيلة لتجد عملا هناك. ربما أسأل ابن خالتي العباس أن يجد لها عملا في المستشفى الذي يعمل فيه، فهو رئيس مصلحة ويمكنه أن يجد لها أي عمل.

- إذن فقد خططت لكل شيء.

قالت ذلك بشيء من التذمر.

- كل شيء تقريبا، حتى الوثائق التي تثبت أنكِ أنجبت طفلا فكرت فيها، وأعرف من سأرشوه ليستخرجها لنا.

- الحاج القريشي يعطي رشوة؟!

قالت مذعورة وكأنها لا تصدق.

- أفعل أي شيء من أجل ابنتي. لم أخرج من هذه الدنيا إلا بها.

- ولكنها ليست ابنتي.

صعقها ردها حتى سقط المصحف من بين يديه.

كان وهو ينظر إلى وجهها كأنه يراها لأول مرة. لم تعد تلك المرأة الممتنة، الراضية، الراضخة.

لمح في عينيها بريقا يشبه وهج تمرد، نفس البريق الذي اعتاد أن يراه في عيني عبد العزيز. فكر مذعورا «يا إلهي، كيف نسيت أنها ليست ابنتها». ولكنه سرعان ما استغفر وألقى وساوسه إلى حين يستجلي الأمر.

- ماذا تقصدين؟

- لقد فكرتَ في كل شيء، باستثناء أن تسألني.

http://mzaj4.blogspot.com/

- أنا أسألك الآن.

- اذن فلتصغ إليّ..

فتحت فمها فتراءى له فيه فراغ مفزع ورهيب، كالذي ملأه منذ أعلمته مليكة بخبر اغتصابها وأخذ في ابتلاعه من يومها شيئا فشيئا. ومع أنه كان يرى لسانها يتحرك وشفتيها تفرجان وتطبقان، إلا أن كلماتها لم تصل أذنيه وكأن بهما من الصمغ ما يمنعها من ولوجهما.

في الحقيقة، لم يكن راغبا أن يصغي إليها، ولكنه أجبر نفسه على الإصغاء، على الأقل ليعرف إن تمكن الفراغ من ابتلاعه كاملا أم لا.

- (...) في كل الأحوال لن أقبل أن يسجل باسمي ابن...

ترددت ثم توقفت، فتابع القريشي بحزن:

- قوليها، لا تخافي: ابن الحرام. حفيدك وحفيدي ابن الحرام.

- حفيدك، أكيد. أما حفيدي فلا شيء يؤكد هذا.

قالت ذلك وهي تعلم أنها طعنته من حيث لا يدري، ولكنها وهي ترى اتساع عينيه وارتعاش يديه وشفتيه، أدركت أنها لم تطعنه فحسب. لقد أردته قتيلا.

تراءى لها وهو يحدجها بنظراته أن شيئا تجمّع في عينيه، كان شفافا بحيث سلب حدقتيه قسوتهما.

فكرت: «أيعقل أنها ...». وشل لسانها في فمها. ولكنها حين رأت انفجار عينيه، أدركت أنها لو قتلته حقيقة لكان أهون عليها من أن تراه بهذه الحالة.

«القريشي يبكي!. أيعقل؟»، تساءلت بندم.

لم يبك حين هجره والده «القايد» وفر إلى فرنسا. ولم يبك حين

http://mzaj4.blogspot.com/

أممت الحكومة أراضي أبيه وصادرت أملاكه، ولا حين وجد أخاه معلقا في الزريبة بعد أن قتل نفسه. ولم يبك حين مات ابنه البكر عبد الرزاق، ولا حين توفيت زوجته الأولى ولا حتى حين سمع باغتصاب ابنته ولا حين علم أنها حامل.

ولكنه بكى الآن، حين شككت زوجته في شرف ابنته.

لم تجرؤ أن تنبس بكلمة، ولا حتى أن تعتذر أو تتقدم نحوه. تجمدت في مكانها وهي تتأمل فظاعة ما تفوهت به.

وحين واتتها الشجاعة نظرت إليه، فأدهشها أن عينيه الدامعتين منذ حين استعادتا بريقهما وحِدَّتها. عادتا إلى قسوتها بشكل جعلها تتوجس شرا.

قال لها بحزم وقد استعاد صوته نبرته الصارمة:

– لو شككت مرة أخرى في شرف ابنتي قتلتك وقتلت ابنك النذل. أما الآن فقومي وأعدي الغداء، سأخرج بعد صلاة الظهر.

رغبت أن تسأله «إلى أين؟»، ولكنها أحجمت وقد تيقنت أن الحاج القريشي عاد من مقتله إلى ما كان عليه من قسوة وجبروت. عاد الرجل الذي إن طلب فقد أمر.

بعد صلاة الظهر، حلق ذقنه وسوى شاربه الأشيب الكثيف، وارتدى عباءة بيضاء فضفاضة وعمامة بوسعادية ذات أشرطة ذهبية، لم يعتد أن يخرجهما إلا في الولائم.

قال وهو يستعد للخروج:

– مهما حدث لاحقا، فاعلمي أنني كنت مجبرا عليه. لم يعد أمامي من خيار آخر، فابنك لا يرغب في تصحيح خطئه حتى بعد

http://mzaj4.blogspot.com/

أن كتبت لـه الـدار والأرض، ولـن أقبـل في حياتي أن يخرج حفيدي إلى الحياة دون اسم. سأفعل ما يلزم من أجل ابنتي وولدها.

ثم سلمها شِوالا وتابع:

– هذا ذهب أم مليكة وبعض المال، حين تلد أعطه لها واجعليها تتصل بالعباس في العاصمة.

بـدا وهـو ينطـق بكلماتـه هـذه، كرجل يسـتعد للـوداع أو كرجل يستقبل أمرا فظيعا. وفي الحقيقة كان كليهما معا. حتى زوجته أدركت ذلك وهي تشـيعه بنظراتها خارجا. شـعرت أنه وهو يخرج من باب الدار، يخرج من حياتها إلى الأبد.

وإذ ذاك تدافعت في داخلها مشـاعر متناقضة، جعلتها تتخشـب فـي مكانهـا دقائـق، لا تعـرف فيمـا تفكـر: أفي البكاء على هذا الرجل الشهم الذي انتشلها وابنها من الضياع، أم في البكاء على خيبته منها حين شككت في شرف ابنته التي تربت على حجرها، أم في ....

وصدى صوت القريشي في رأسها «مهما حدث لاحقا، فاعلمي أنني كنت مجبرا عليه. لم يعد أمامي من خيار آخر، فابنك لا يرغب فـي تصحيـح خطئـه حتـى بعـد أن كتبت لـه الدار والأرض، ولن أقبل فـي حياتـي أن يخـرج حفيـدي إلى الحياة دون اسـم. سـأفعل ما يلزم من أجل ابنتي وولدها».

«يا إلهي.. ولدي».

صرخت، فبدا صوتها كصراخ مسـتنجد من قاع بئر سـحيقة، ثم انطلقت دون أن تدري إلى أين تقودها قدماها.

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل السابع

المحاكمة

-1-

وإذ تشعّب الحديث، قال السائق وعيناه مرفوعتان إلى السقف:

– من الأفضل أن نتوقف عند هذا الحد.

ليضيف هامسا، بعد أن خفض بصره وطأطأ رأسه محدقا في الأرض:

– أترون تلك الكاميرات، «وأشار بسبابته اليمنى إلى أعلى»، إنها تسجل كل شيء.

حينئذ، نظر الثلاثة بأطراف أعينهم إلى السقف، فلاحظوا – وكأنها أول مرة – كاميرات دائرية مزروعة على طرفي كل نيون، بمعدل أربع في كل عربة. صمتوا برهة وهم ينظرون إلى بعضهم وإلى السائق الذي استوى في جلسته، يحدق فيهم بدوره.

استأنف:

– هي لا ترسل تسجيلاتها إلى شاشات المراقبة في الكابينة فحسب، بل أيضا إلى جهاز تسجيل لا يحق لأحد لمسه حتى السائق. أخبرني أحد الزملاء أن جهاز الأمن يرسل كل صباح من يستعيد القرص المسجل ليعاين لاحقا.

توقف فجأة، وجال بناظريه على وجوههم، فارتسمت ابتسامة رضا على محيّاه وهو يرى ما صنعه كلامه في وجه أمين قرللو. كان

http://mzaj4.blogspot.com/

أصفر كحبة ليمون طازجة.

إلا أن ابتسامته سرعان ما انمحت وهو يطالع وجهي حسان ربيعي وخالتي لويزة. كانا هادئين وكأن الخبر لم يصلهما قط.

قال حسان ربيعي بصوته القوي الفاضح:

- أتصدق مثل هذه الترهات؟!

هز السائق رأسه «نعم»، دون أن يرفع عينيه عن الأرض أو ينبس بكلمة.

تدخلت خالتي لويزة بشيء من التعقل:

- ربما كان الأمر صحيحا، ولكن ليس للتجسس على الناس، ربما للتأكد من أنه لم تحدث أية جريمة في القطار.

هز السائق رأسه مرة أخرى موافقا، ولكنه هذه المرة همس:

- صحيح ولكن أيضا لمراقبة الناس.

ضحك حسان ربيعي وأضاف ساخرا:

- لو أن الأمر كما تقول، لدخل الشعب كل الشعب إلى السجن. أتعرف كم من تذمّرٍ وتشكٍّ وسبٍّ وشتمٍ ونكتٍ عن الحكومة أسمعها في كل مرة أستقل القطار؟

تابع وقد وضع يده في جيب جاكيته الكشمير:

- يا رجل، إننا شعب لا نملك إلا الكلام لننفس على أنفسنا، هذا ما تبقى لنا بعد كل ما جرى في هذه البلاد، ولا أعتقد أن الحكومة غبية لتفرض علينا الصمت، وهي تعرف أن الكلام بقدر ما هو متنفسنا بقدر ما هو خلاص لها.

ثم أخرج من جيبه سيجارة ووضعها في فمه.

وهو يهم بإشعالها، أدرك أنه لم يدخن منذ ركب القطار. نظر

http://mzaj4.blogspot.com/

إلى الساعة على لوحة الاستعلامات فوجدها السابعة إلا عشر دقائق.

لقد قضى أكثر من ساعة دون أن يدخن.

«أيعقل؟!». فكر وأخذ نفسا عميقا وزفره في الهواء.

قال وهو يتلذذ بنَفَس الموت يخترق رئتيه:

– أكبر انتصار تحققه أية سلطة هو إيهام الناس بقوة لا تملكها، وحين يرسخ هذا الوهم في نفوسهم فمن الصعب قلعه، إلا بعد أجيال.

أضاف شارحا:

– وهم القوة ما سمح للفرنسيين بالبقاء في الجزائر أكثر من قرن وربع القرن، ووهم القوة ما جعل الإرهاب يكسب جولات ووقتا، ما كان ليكسبهما لولا وقوع الناس في الوهم. وهو ذات الوهم الذي يعمل أي دكتاتور على تكريسه منذ السنوات الأولى لحكمه، فحتى وإن فقد القوة التي مكَّنته من الاستيلاء على الحكم، يصمد لسنوات بفضل الوهم.

قال ذلك وهو يرفع كتاب بولاتوفيتش من على الأرض حيث كان ملقى منذ أغمي عليه قبل دقائق. وحين رفع رأسه أدهشه أن أمين قرللو قد انسحب دون أن يلاحظه أحد.

ابتسمت خالتي لويزة وقد فهمت ما ارتسم على وجه حسان ربيعي من دهشة. قالت بمرح:

– أعرفت الآن لم كنت في صباه أسميه «قرللو»، لطالما كان كالصرصور، لا تعرف من أين يأتي ولا كيف يختفي.

كان من الطريف وهو يضع كتاب بولاتوفيتش على حجره، أن يكون مقلوبا على الصفحة 411. استرقت عينا خالتي لويزة، دون قصد، فقرة منها وقرأت بجهد في داخلها: «لا أقتل لأنني أريد القتل كما تظن،

http://mzaj4.blogspot.com/

ولا لأنني أحبه. أنا ضعيف وجبان، مسكين ترتجف يداه ثانية، لست بطلا حتى. لا أقتلك لأنك ظلمتني أكثر من الباقين. واحد غيرك لم يكن ليرفعني عن تلك المزبلة، أو لكان رفعني وبصق عليّ ثم رماني ثانية لأتفسخ حيا وتفوح رائحتي لكل الجهات. أقتلك لأنك رفعتني وأوقفتني على قدمي. شجعتني: «أقتل واسرق وانهب. احترس من الأثر فقط». أقتلك لأنك يجب أن تموت».

أرعبتها قسوة هذه العبارة، ولكنها سرعان ما ذعرت وهي تقرأ على هامش الصفحة تعليقا كتب بقلم الرصاص: «أقتلك لئلا أسمع صوتك من جديد، لأنني بصمتي خلقتك، وبصمتي جعلتك ما أنت عليه. الآن مت باليد التي صنعتك وبلائي التي حسبتها لن تعتق من فمي، فتشطبك مني إلى الأبد.. أعرفت الآن بما ستموت: بالذي أحياك أول مرة».

حين رفعت عيناها عن الكتاب. كان السائق يتحدث في نقاله، ثم هرول إلى كابينته وكأن له فيها ما لا يقبل التأجيل. وما إن دخلها حتى صدر صوته من مكبرات الصوت:

«نعلم الركاب أنه سيتم إجلاء الجميع بعد لحظات. الرجاء التزام الهدوء إلى حين فتح الأبواب من الخارج».

وأضاف:

«بمجرد فتح الأبواب، الرجاء إخلاء المكان فورا».

بدا صوت السائق أكثر يقينا وصرامة، وكأنه صوت قاض يأمر بإخلاء قاعة المحاكمة، وهو يضرب بمطرقته الخشبية الهشة على منصته التي من فوقها، يبدو كل مَن دونه مجرد أقزام.

لطالما تساءلت خالتي لويزة سنوات امتهانها المحاماة فيمَ يفكر

http://mzaj4.blogspot.com/

فيه القاضي وهو جالس، هناك، ينظر إلى المتقاضين من أعلى. سيما في ذلك اليوم، قبل ثلاثين عاما، حين أطلق صوته الجاف يأمر بإخلاء القاعة.

قال بجفاء:

– نأمر بإخلاء القاعة لتعلق القضية التالية بقاصر.

وما كاد ينتهي من تصفح ورقة من ملف القضية، حتى أغلقت الباب ولم يبق في القاعة إلا المعنيون بالدعوى.

أضاف محدثا المحامية خالتي لويزة:

– أستاذة هل تحبين أن تضيفي شيئا قبل أن ننطق بالحكم؟

سألها دون أن ينظر صوبها. بدا وكأنه مهتم بشيء في ملف القضية.

قالت بعد أن تقدمت، ممسكة بيد حسان الذي كان يحدق في القاضي بعينين فارغتين، بالكاد عكستا صورته عليهما:

«سيدي القاضي. لا شك عند حضرتكم أن ما تعرض له هذا الطفل يفوق كل جرم تكونون قد نظرتم فيه، وإن تعلق بقتل بشع لا يوصف. ولا شك أنني وأنا أرافع بين يدي حضرتكم، أجدني قاصرة حتى على بلوغ مشاعر هذا الطفل لأصفها لكم، ربما بعدها تدركون أن الحكم على الجاني لا ينبغي أن يقتصر على ما تصدرونه من حكم عادل، بل على القانون الذي عليه أن يكون أشد في عقوباته على الحثالة من أمثال حارس الابتدائية الذي عوض أن يعمل على حماية حسان ربيعي وغيره من أطفال، يعمل أن ينفس من خلالهم عن حيوانيته التي لا أعتقد أن مديرة المدرسة كانت على جهل بها، ما دام الجاني ليس إلا شقيقها.

http://mzaj4.blogspot.com/

وبقدر ما أشعر بالقرافة والبغض والاحتقار للجاني، بقدر ما تنتابني أضعاف هذا الشعور تجاه المديرة التي تجرأت أن تخون أمانة وضعتها الدولة في رقبتها حين ولتها مديرة على ابتدائية «حسن بن مومن»، وخانت ثقة الأولياء حين استأمنوها على حياة وشرف ومستقبل أبنائهم القاصرين. خانت كل ذلك بتوظيف هذا البدوفيلي المريض والمختل وجعلته يعمل حارسا في الابتدائية مع علمها بسوابقه الشهوانية مع الأطفال. وكأنها سيدي القاضي، تضع ثعلبا في خم دجاج وتغلق عليه، وحين يلتهمها، تخرج إلينا مندهشة، مذعورة مما حدث، وتصيح ببراءتها مثلما تفعل الآن.

إنها سيدي أجرم من المغتصب الذي هو أخوها، وأكثر مرضا منه وأخطر على حياة أبنائنا ومستقبلهم من خطره، وهو الجاني الذي ثبتت إدانته بشهادة الطب الشرعي وباعترافه بفظاعة ما اقترفه في حق هذا الطفل الذي فقد قدرة النطق من وقتها، ولا يدري إلا الله ماذا سيفقد في لاحق الأيام إن لم نسارع إلى معالجة الآثار التي قد تلحق به، بحسب ما أكدته شهادة الأخصائيين النفسيين أمام حضرتكم، وما دعَّمته تقارير الخبرة التي أمرتم بها.

سيدي القاضي.. إن رغبتنا في شفائه وتخلصه من آثار الجرم الآثم الذي لحق به، لن يبدأ كما نتصور بمتابعته طبيا ونفسيا، بل بما ستنطقون به من حكم عادل في حق المديرة وأخيها الحارس، وبقدر ما تكون عقوبتهما شديدة، بقدر ما سيسرع هذا وتيرة شفائه. على الأقل، سيشعر أن العدالة التي تمثلونها طالت هذين المجرمين اللذين اغتصبا براءته، وكان الأجدر بهما أن يكونا أول من يدافع عنها.

إن ثقتنا فيكم سيدي القاضي وفي عدالتكم التي لا يشك فيها أحد، تجعلنا نطالب بأقصى عقوبة في حق الجانيين، وبتعويض مالي

http://mzaj4.blogspot.com/

يسمح لحسان ربيعي أن يلقى أفضل رعاية طبية ممكنة».

حيـن أنهـت مرافعتهـا، رفع القاضي رأسـه من الملف، وحدجها مبتسما:

– هذه وجهة نظر.

ثم أشار إلى الشرطي وأمره بإخراج حسان من القاعة.

قال حين تأكد من خروجه:

– لا أرى أنه من المعقول أن توجه أية تهمة للمديرة. إنها هنا بصفـة شـاهدة لا أكثـر، ولـم تقتـرف أي عمـل مـادي يجعلها في نظر القانون شريكة أو محرضة على الجريمة.

– ولكنها سيدي القاضي، احتجزت الطفل ليومين كاملين وهذا عمل غير قانوني. ثم إنها كانت تعرف سـوابق الجاني المرضية ومع ذلك وظفته في ابتدائية تعجّ بالأطفال.

تضاحك القاضي، وخاطب المديرة:

– هل كنت على علم أن أخاك متشهي أطفال؟

أجابت بذعر:

– لا علم لي، فأنا شقيقته فحسب.

ثم سأل الحارس:

– وأنت هل كانت شقيقتك على علم بشهواتك؟

طأطأ رأسه وحركه أن «لا».

أضاف بيقين:

– أرأيت أستاذة. لا دليل يدين المديرة.

– وماذا عن الاحتجاز في القبو، أليس هذا جريمة يُعاقب عليها؟

قالت وقد ارتفع صوتها حنقا.

http://mzaj4.blogspot.com/

بدت وهي وتقول ذلك، وكأنها تستجدي القاضي أن يبقي على شيء من آدميته.

– بالنسبة للاحتجاز، فلا أعتقد أنه بمثل تلك الفظاعة التي وصفته بها.

أضاف ورمق أم حسان:

– كنت على علم أنه سيحتجز في القبو.

لم ينتظر أن ترد وتابع:

– بحسب محاضر التحقيق، أنت من طلب من المديرة أن تفعل ما تراه مناسبا لتأديب حسان.

تدخلت المحامية:

– ولكنها لم تطلب منها أن يحتجز.

– ولكنها علمت بقرار المديرة ولم تعترض، بل تركته بحضورها يقتاد إلى القبو.

– سيدي، إنها امرأة أمية، لا علم لها بقوانين المدارس. لقد فكرت أن الاحتجاز من أساليب التأديب المسموح بها.

– أستاذة، مهما كان الأمر فقد سمحت بحدوث ذلك. أما علمها من عدمه فهذا أمر لا يمكن لأحد سواها أن يؤكده.

– وماذا عن بقائه يومين وثلاث ليال دون أن تنتبه المديرة إلى أنها تركت طفلا بريئا في القبو دون حماية.

– أوافقك أنه إهمال علينا النظر فيه، ولكنه لا يرقى إلى إهمال والدته التي نسيته بدورها في القبو دون أن تبحث عنه. بالنسبة لي فإن السيدة، عفوا الآنسة ربيعي أم مهملة دون شك.

– سيدي القاضي، لسنا هنا لنحاكم الآنسة ربيعي، إننا نبحث

http://mzaj4.blogspot.com/

عن العدالة في قضية اغتصاب طفل.

ابتسم القاضي وقال بنبرة حازمة:

– بل نحن هنا لنحاكم أي شخص أراه يستحق المحاكمة. وأرى أنه من الضروري أن نتباحث مسألة حضانة هذه الأم المهملة.

وأضاف بسخط:

– ولكن، ماذا كنت لأنتظر من امرأة أنجبت من...

واستغفر دون أن يكمل.

كان وهو يتحدث يرمق أم حسان بنظرات قرف لم يسع حتى لسترها.

وفي لحظة ارتباك أصابت المحامية، وجه القاضي كلامه إلى وكيل الجمهورية. سأله:

– والنيابة ما هي طلباتها؟

– نطالب بأقصى عقوبة في حق المتهم.

– وأنت ما طلباتك أستاذة؟

– إعادة تكييف الجريمة إلى جناية لاقتران جنحتي الفعل المخل بالحياء والاحتجاز غير القانوني.

– هذا طلب رفضناه من قبل.

– إذن، نطالب بما طلبه السيد وكيل الجمهورية وتعويضا ماليا تراه المحكمة يتوافق والضرر الحاصل للضحية.

صمت القاضي برهة وهو يتأمل وجوه الحاضرين.

كانت الأعين مشدودة إليه، باستثناء عيني خالتي لويزة، وكأنها لم تكن تأمل من حكمه أي شيء.

قال بصوت حازم:

http://mzaj4.blogspot.com/

– نحكم على المتهم بعامين حبسا نافذا، وببراءة السيدة المديرة. كما نوصي بفتح تحقيق في شأن الآنسة ربيعي وظروف حضانتها لابنها الضحية حسان ربيعي. أما عن طلب التعويض، فلا نرى أنه جاد، على اعتبار أن الدولة تضمن حق الصحة بالمجان.

* * *

حين رفعت الجلسة، قالت أم حسان لخالتي لويزة:

– هل كان الحكم ليختلف، لو تمكن حسان من الكلام وشهد بما حصل.

ضمتها خالتي لويزة وعيناها تفيضان دمعا. قالت بصوت متقطع خافت:

– لا شيء كان ليتغير.. لا شيء.

وأجهشت بالبكاء.

واستها أم حسان، متصنعة الفرح:

– ما بك؟!.. أتبكين وقد فزنا. لقد سجن النذل وانتهى الأمر.

أرادت أن تقول لها «لم نفز»، ولكنها لم تكن راغبة في أن تضيف إلى حزنها.

«يكفيها ما حدث»، فكرت وهي تنظر إلى وجهها الأسمر المتبسِّم.

قالت بجهد: «نعم فزنا. سجن النذل». وسارت معها حتى خرجتا من القاعة، تلك التي شهدت إدانتها.

http://mzaj4.blogspot.com/

-2-

في الوقت الذي صدحت فيه مكبرات الصوت، تراءى لحسان ربيعي أنه يسمع صوتا.

نظر من زجاج المقاعد المضبب، فرأى بعسر ضوءا يخترق الظلمة برتابة وصمت.

بالطبع لم يكن بمقدور أحد أن يسمع أي شيء يدور خارجا مع سماكة الزجاج المضبب، المقاوم للكسر، ولكن حسان ربيعي وهو يرى قوة الضوء القادم، خمّن أنه ضوء قطار يسير على سكة موازية. لذلك حين اشتد الضوء، سمح لنفسه أن يتخيل الصوت المرافق له، بحيث لم يعد صامتا.

قال ووجهه ملتصق بالزجاج:

- يبدو أن النجدة وصلت.

ودون أن ينتظر أي رد أضاف:

- أخيرا سنعود إلى حياتنا.

وتنهد كأنه أزاح عن قلبه هما عظيما.

ابتسمت خالتي لويزة وهي ترى أن الطفل الذي رأته أول مرة عاد من جديد. لم يكن بنفس البراءة التي كان عليها منذ دقائق وحسان ربيعي يطالع روايته، ومع ذلك كان بريئا بما يكفي ليجعلها تبتسم سعادة لرؤيته مرة أخرى.

اكتفت بالنظر إليه ووجهها الهرم يشي برغبتها في أن يتوقف الزمن، لا يتقدم ولا يتأخر، عند الصورة التي ارتسمت على مقلتيها

http://mzaj4.blogspot.com/

وهي ترى حسان الطفل عاد من جديد.

بـدت مكتفيـة بمـا تـراه، كما كانت المرأة العجوز الحاجة مليكة وهي تنظر إلى صورة بين يديها بالأبيض والأسود أخرجتها من حقيبة يدها.

كانـت تلـك صـورة لابنهـا فـي شـهره الثانـي، كان نائما مغمض العينين، ملتفا في قماط أبيض.

«كم تبدو جميلا». قالت منتشـية وقد غاصت في الصورة حتى انقطعت عن واقعها، إلى حد أنها لم تلاحظ الشاب بجوارها يمد يده إلى حقيبتها ذات الحلقات المعدنية.

أمال كتفيه، محافظا على جلسته وعيناه متأهبتان لرصد أي رقيب. وحين اطمأن ألا أحد ينظر إليه، دسّ كفه بمهارة في الحقيبة التي كانت على حجر الحاجة مليكة، وأخذ ينقب بخفة في جوانبها وقاعها حتى تحسس شيئا. سحبه ببطء وجعله في راح يده وشد قبضته وسحبها. وما أن فعل حتى قام وانصرف.

حين ابتعد عنها، وقف أمام الكشـك بآخر الردهة ونظر إلى ما في يده. كانت أربع أوراق من ألف دينار. وضعها في جيب سرواله وخرج من المحطة أكثر ثراء وأقل مروءة مما كان عليه لحظة دخلها قبل ساعة.

كل ذلك والحاجة مليكة في عالمها الآخر، داخل الصورة، تتلذذ برؤية وجه ابنها، غير راغبة في العودة إلى واقعها لولا أن يدا هزتها وصوتا قاسيا أعادها إليه:

- خالتي، عليك الانصراف الآن.

نظرت، فكان وجه دركي نحيل يحدق فيها بريبة.

http://mzaj4.blogspot.com/

أضاف بعد أن تأكد من استفاقتها:

– الجميع يرحل الآن وقد ألغيت كل الرحلات. عليك أن تغادري الآن قبل أن تتفاقم الأمور خارجا.

قال وانصرف باتجاه باب المحطة.

نظرت حولها فذعرت حين أدركت أن الجميع رحل، ولم يبق في المحطة غيرها وبعض عمال الشيمينو والكثير من رجال الشرطة والدرك.

أرادت أن تسأل «ما الخطب»، ولكنها أحجمت حين رأت الجميع منشغلا بأمر ما.

وبجهد وقفت على قدميها وحملت حقيبتها ذات الحلقات وسوَّت خمارها وحشرت تحته شعرها إلا خصلتين أماميتين فلتتا منه.

لم تلاحظ وهي تسير صوب الباب أن حقيبتها ما زالت مفتوحة كما تركتها ساعة أعادت المرآة إليها قبل حين، ولم تلاحظ أنها تسير بوجه بهلوان اسودَّ بسبب كل تلك الدموع المنهمرة من عينيها المكحلتين. لم تلاحظ لأنها لم تعد تهتم، منذ لحظة سمحت لنفسها بالتذكر.

حين بلغت الباب مجتازة جهاز السكانير، وقفت بين رجال شرطة شكلوا صفا متراصا عند عتبتها. نظرت بين فراغات أجسادهم، فلم تر أي هول قادم، ومع ذلك سمعت أصوات غير متناغمة قادمة من أعلى.

رفعت رأسها، فهالها أن طوابير السيارات اختفت من الطريق المنحدرة بجانب قناطر السكوار الضخمة، وكذلك كان الشأن بالنسبة للطريق المحاذية للمحطة.

لم تفكر كثيرا وهي ترى أن المطر خفّ وخرجت من المحطة

http://mzaj4.blogspot.com/

تسير بحذر بسبب نعلها الممزق.

كانـت خطواتهـا أقصـر وأبطـأ من العادة، وكأن أثر السـنين أطبق عليها على حين غرة.

جعلت حقيبتها ذات الحلقات في حضنها وقد حاصرتها بذراعيها وكأنها تحمل رضيعا: تضع يدا على ظهره وأخرى تحت خاصرته.

كانت تسير بغير رغبة في السير، وكأن ثمة قوة لا مرئية تدفعها من خلف، تجبرها على الخطو نحو نقطة لا ترغب في بلوغها. ربما لأنهـا كانـت تـدرك فـي قـرارة نفسـها أنها نقطة اللاعـودة، كتلك التي بلغتهـا حيـن خرجـت مـن شـقتها ذات يوم من عـام 1982، تاركة فيها ابنها النائم أو المصروع، أو تلك التي بلغتها، من قبل، حين فرت مع رضيعها من غرفتها التي سـجنها فيها أبوها. ولكنها كلما فكرت في الأمر، لم تكن ما بلغته في الحالتين نقطة اللاعودة التي يستحيل حين بلوغها التراجع. لم تكونا إلا محطتين إجباريتين لرحلة قسرية بدأت يوم كانت تسير مرغمة على أن تسير، كما تفعل الآن، بخطوات بطيئة وقصيـرة، وبيـن ذراعيهـا رضيعـا في شـهره الأول، تضمه إلى صدرها كما تفعل الآن بحقيبتها ذات الحلقات.

حين بلغت آخر خطوها، رفعت رأسها، فرأت ثلاثة رجال يرتدون الأسود. كانوا ينظرون إليها بشفقة واشمئزاز في الوقت نفسه.

سألها الرجل البدين ذو الشارب الكثيف بصوت مبحوح مختنق:

- الاسم، المهنة والحالة الاجتماعية.

أجابت بخنوع:

- مليكة ربيعي، ماكثة في البيت، عازبة.

- ابن من هذا الذي بين يديك؟

http://mzaj4.blogspot.com/

نظـرت حولهـا. كانـت القاعـة مكتظـة عن آخرها، رجال ونسـوة ورجال شرطة متناثرون فيها كأزرار زينة على ثوب حداد.

على يمينها رأت أباها جالسا مطأطأ الرأس، ينظر صوبها بعينين فارغتيـن. لـم يكـن هـذا الجالس قبالتها القريشـي الـذي عرفته بأناقته ونظافتـه وحـدة نظراتـه. لمحـت عمامته البوسـعادية وقد تراخت حتى لم تعد إلا شريط قماش بالكاد يستر رأسه الصلعاء، ولأول مرة تراه بذقن غير حليقة وشارب غير سوي.

سألها الرجل البدين مرة أخرى:

– آنسـة ربيعـي، أقـرأ فـي محاضـر الشـرطة أنـك تقولين إن ابن عمك عبد العزيز ربيعي هو صاحب الولد وأنه نتيجة اغتصابه لك.

هزت رأسها وأضافت:

– هذا صحيح. الجميع يعلم بذلك.

– من تقصدين بالجميع؟

– أبي وزوجته أم عبد العزيز وشـيوخ برج اخريص وعين طير الزين.

– عبـد العزيـز نفـى أن يكـون قـد تعرض لك، أما أعيان القريتين فيقولون إنهم لم يشـهدوا إلا اتفاق أبيك وابن أخيه عبد العزيز على زواجه منك مقابل أن يهبه الأرض والدار. أما والدك وزوجته..

وتوقف عن الكلام وكأنه تذكر أمرا.

سألها وهو يتلهى بقلم بين أصابعه:

– أرى أنك في السادسة والعشرين من العمر.

– نعم سيدي القاضي.

أضاف بتبجح:

http://mzaj4.blogspot.com/

- ولا بد أنك تعلمين أنك على قدر كبير من الجمال.

لم تجب وخفضت بصرها.

- كما أن أباك من رجال عين طير الزين المهابين. حتى هنا في سور الغزلان لا أحد يجهل من يكون.

نظرت إليه باندهاش وتمتمت:

- صحيح.

- ومع ذلك لم تتزوجي.

تابع وهو ينظر إلى المحلفَيْن على يمينه ويساره وقد ارتسمت على شفتيه ما يشبه البسمة.

- لم أفعل.. صحيح.

- أليس هذا أمرا غريبا أن تفضلي العنوسة على الزواج؟

أجابت بفتور:

- لم يكتب الله فقط.

- لم يكتب الله أم أنك تخفين أمرا آخر؟

قال متخابثا وقد توقف عن العبث بالقلم.

لم تجب ودفعت برضيعها إلى حضنها ورفعته بحيث أصبح فمها وأنفها يلامسان رقبته.

أخذت تصغي لأنفاسه وهو غارق في نومه، غير آبه بالمكان الذي هو فيه ولا بتلك العيون التي كانت تحدق في أمه باحتقار وتشه.

رفضت أن تجيب، رغم حصار الصمت الذي أطبقه عليها القاضي منتظرا ردها.

هل كان سيفهم لو نطقت وصارحته بسبب رفضها للزواج؟

هل كان سيعذر وضعها الذي أجبرت عليه، ببساطة لأنها هكذا؟

http://mzaj4.blogspot.com/

كانت عيناه تترصدان فيها أي انهيار، أي انكسار، أي سقوط، أي اعتراف. ولكنها لم تنهر ولم تنكسر ولم تسقط ولم تعترف. فضلت أن تصمت، لأنها في قرارة نفسها كانت تعلم أن ما هي عليه سيكون أبشع، حين تنطق به، في نظر المحدقين فيها من التهمة الجاهزة الصارخة بعهرها رغم طهرها.

الأفضل لو تصمت وتقبل بقلب قوي تهمة العهر التي قالها القاضي دون أن يقولها. ولكنها حين نظرت إلى أبيها حدست من نظراته أنه راغب في أن تدفع عن نفسها التهمة.

فكرت: «هل سيحتمل أكثر؟».

قرأت على وجهه الذي بدا لها أكثر تعظما أنه سيحتمل.

قالت بهدوء:

- لأنني لا أحب الرجال.

جفل القاضي ووشوش الحاضرون حتى أصبحت وشوشتهم ضجيجا يتعسر فهم فحواه.

سألها القاضي مستفسرا:

- لا تحبين الرجال؟!

أجابت بحزم أكبر:

- لا أشعر بشيء نحوهم، لهذا فضلت ألا أتزوج.

كادت تقول «أميل أكثر للنساء». ولكنها لم تجرؤ لتشي بسرها كاملا.

تضاحك القاضي وضحك الجميع، إلا أباها فظل يحدق فيها.

تراءى لها أنها تقرأ شيئا من الرضا على وجهه، فتساءلت بذهول «أكان على علم بذلك؟!».

http://mzaj4.blogspot.com/

- لا تحبين الرجال، أم أن زواجك كان ليفضح سلوكك المشين؟

علق القاضي بشيء من الاحتقار، وتابع مستدركا:

- ولكننا لسنا هنا لمحاكمتك، ولو أن القانون يسمح لي لأمرت بسجنك أولا قبل أن أنظر في القضية.

استوى في مقعده وأضاف:

- في كل قضية اغتصاب تعرض أمامي أزداد يقينا أن الضحية الوحيدة هو المتهم بالاغتصاب، فلولا سلوك المرأة المغتصبة لما اقترف هذا الجرم. ومع هذا لا سبيل إلا لتطبيق القانون.

سألها مجددا:

- تقولين إن الذي اغتصبك هو ابن عمك.

- نعم.

- رغم أنه ينفي الواقعة ولا شهود يؤكدون الأمر.

- ومع ذلك هو من اغتصبني.

- ولماذا إذن لم تتقدمي بشكوى أمام مصالح الأمن.

- أخبرت أبي بما حدث.

- لكن أباك لم يقدم أية شكوى.

- خشي على سمعة العائلة وفضل أن يحل الأمر بطريقته.

- تقصدين برشوة ابن أخيه للزواج منك.

هزت رأسها «نعم».

- ومع ذلك لم يتزوج منك. أقصد رغم أن أباك كتب له الأرض والدار.

- نعم.

- هل عرف أنك حامل؟

http://mzaj4.blogspot.com/

- ربما.. لا أدري. الأرجح أن أمه أخبرته.
- تقصدين زوجة أبيك.
- نعم.
- وما الذي يجعل رجلا في كامل عقله يرفض أن ينسب ولده إليه، ما دام متأكدا من نسبه إليه؟
- عبد العزيز ليس رجلا ولا يملك أي عقل.

قالت ذلك بغضب.

- ربما لأنه لم يغتصبك.
- بل اغتصبني وهو يعلم ذلك.

وحدجت عبد العزيز الواقف بالقرب منها بنظرات ازدراء.

- أو ربما لأنه علم بآخرين فعلوا نفس الشيء معك.

حينئذ تدخل محاميها، مشيرا لها ألا ترد.

- سيدي القاضي، أذكر حضرتكم أن الآنسة مليكة ربيعي حاضرة هنا بصفة الضحية وأن المتهم الوحيد في هذه القضية هو أبوها السيد عيسى ربيعي المدعو القريشي.

احتقنت عينا القاضي وجحظتا، حتى تراجع المحامي بخطوتين.

قال بجفاء:

- ليس لغر مثلك أيها الأستاذ أن يذكرني بالملف أو كيف أدير الجلسة. إلا أنني أريد أن أوضح وجهة نظر مهمة.

أضاف موجها الكلام إلى الحاج القريشي:

- يا حاج.. أما زلت عند أقوالك التي سجلتها محاضر الدرك.
- نعم يا ولدي.
- لست ولدك ولا يشرفني. أنا هنا القاضي وأنت المتهم.

http://mzaj4.blogspot.com/

طأطأ القريشي رأسه بخذول. ولكنه سرعان ما رفعه، فذهل الحضور حين رأى وجهه وقد استعاد لونه وعينيه القاسيتين.

نظر في اتجاه القاضي ورفع صوته وكأنه كان راغبا في أن يصل الجميع.

حينها، صمت الجميع، حتى الوشوشة توقفت. وكان القاضي إذ ذاك يسوي جسده الضخم على مقعده من جديد، وكأنه يستعد لتلقي أهم درس في حياته.

قال بثبات:

– هذا أمر وقع وانتهى، وليس لأحد أن يغير الأمر الواقع. إلا أنني قبل كل شيء أرغب في البصق على وجه كل واحد يشكك في شرف ابنتي مليكة، ولو أن الوقت غير الوقت لانتزعت عيني كل من تسول له نفسه أن ينظر إليها كما تنظرون إليها الآن. إنها أشرف منكم ومن أخواتكم وزوجاتكم وبناتكم وحتى أمهاتكم اللواتي لم ينجبن غير الخنازير وناكري الجميل. أنسيتم من أكون.. أنا القريشي. أنا الذي كنتم تتبولون في سراويلكم بمجرد أن تلمحوا خيالي. أنا من كنتم تجثون على ركبكم وتزحفون إليّ على بطونكم كلما فتحت فمي. أنا أيها القاضي من كنت تحلم لو زنيت بأمك لتنسب لي..

قاطعه القاضي وهو يصرخ:

– أصمت.. أنت في محكمة وليس في زريبة دواب.

– محكمة؟!.. أتسمي هذه محكمة وأنت تحاكم ابنتي عوض أن تحاكمني. حاشا للزريبة أن تكون بمثل قرافة هذا المكان، كهذه الأرض الناكرة للجميل، كهذه البلاد العاقر.

قاطعه القاضي:

http://mzaj4.blogspot.com/

– يا الله. أصمت وإلا أمرت الشرطي أن يسحبك كما تسحب الكلاب.. لا تضطرني لإصدار حكمي فيك الآن قبل أن أحاكمك.

– لقد أصدرته فعلا، قبل حتى أن تدخل هذه القاعة. ولكنك عوض أن تصدره فيّ أصدرته في ابنتي. هذه التي قدر لها الله أن تصبح أما بغير زوج. أي جرم اقترفته غير كونها عاجزة، أية جريمة ترمونها بها وأنتم تعلمون أنها أجبرت على الحمل ولم تختره كما لم تختر أن تكون امرأة.

– أستغفر الله يا حاج. دعنا نعمل بهدوء.

– لقد اعترفتُ يا سيدي القاضي وانتهى الأمر. أصدر حكمك وامنح هذا الولد اسما.

– هذا هو المشكل يا حاج، اعترافك لم يقنعني. أخشى أن ما فعلته لم يكن إلا لتجد مخرجا لحفيدك.

– إذن فاسمعها مني مجددا وليسمعها وكيل الجمهورية وكل هؤلاء الأوغاد الحاضرين: أنا القريشي، عيسى ربيعي. أقولها وأعيدها: أقر أنني اغتصبت ابنتي وحبلت مني، وأقر أن هذا الرضيع الذي بين يديها من صلبي، ولدي الذي سيحمل اسمي ولو بالحرام. أقول ذلك وأنا بكامل عقلي، وبكامل عقلي وهبت الأرض والدار لابن أخي عبد العزيز حتى لا يفضحني وأمه، وأبرئه من كل ما تتهمه به ابنتي.

أعترف بكل هذا فاصدر حكمك أيها القاضي وتوقف عن محاكمة ابنتي.. توقف عن محاكمتها وامنح ابنها اسما رحم الله والديك.

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/

القسم الثاني

محاولةٌ بائسة لترسيم غدٍ آتٍ

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الثامن

مجرد تفكير في المستقبل

-1-

لو أنني لم أر وأنا أنظر من زجاج المقاعد المضبب تلك الأضواء المقتربة لما صدقت أن النجدة وصلت.

الصوت في رأسي يجعلني في حالة شك مستمرة في واقعي. مرة أنا هنا ومرة هناك.

لم أعد واثقا من أي شيء منذ آخر حبة دواء شربتها هذا المساء. أعتقد أنها كانت الخامسة حين تناولتها بما تبقى من العصير الذي حملته معي من المنزل. فأنا لست كبقية الموظفين ممن يضيعون ساعتين على الغذاء. أفضل أن أحمله معي كل صباح، وبذلك أدخر الوقت والمال وقليلا من الصحة.

حين أفكر في الأمر، فقد أخذت هذا من زوج أمي. كان رجلا منظما في كل شيء. صحيح أنني كنت أسخر منه في شبابي ولكنني بعد أن استقريت عرفت كم مفيدة عاداته التي اكتسبها وأخذتها عنه.

أصحو صباحا في الخامسة إلا ربع. أعد قهوتي بنفسي، فزوجتي ليست من النوع الصباحي. عادة ما تنام حتى العاشرة، وأحيانا حين

http://mzaj4.blogspot.com/

نمارس الجنس لا تصحو إلا مع الظهيرة. أما أنا فأصحو دائما على الخامسة إلا ربع، حتى في أيام الراحة والعطل.

أغسل وجهي وأشرب قهوتي، ثم أغلي حبتي بطاطا وثلاث بيضات، وأصنع بها سلطة ماسدوان بالزيتون والبازلاء والمايونيز، وأضعها في «غميلتي»(*) التي ورثتها عن زوج أمي بعد رحيله قبل ثلاثة أعوام. حتى العصير، أنا من يصنعه بمزج القليل من الحليب والماء وعصير الليمون.

في الحقيقة لم تكن «الغميلة» ما ورثته من زوج أمي فحسب، فقبل سنوات، ربما كنت في العشرين، علمت بالصدفة أنه كان صاحب الشقة التي اكترتها أمي في لاريوش. تلك التي أمضيت فيها كل شبابي حتى انتقلت بعد زواجي إلى سي مصطفى.

فوجئت حين جعلها باسمي قبل وفاته. ومن ذلك الحين وأنا أحتفظ بها دون أن أطلع زوجتي عليها. أخشى لو علمت بها أن تجبرني على الانتقال إليها أو على بيعها لتستولي على ثمنها كما تفعل الآن بأجري.

تقول لي دائما إنها تفكر في المستقبل، فتأخذ ثلثي أجري السخيف وتترك لي الثلث، أفعل به ما يحلو لي. في الحقيقة هو يغطي مصاريفي القليلة، ما دمت من النوع الذي يصفونه عادة بالبخل. لكنني لم أكن دائما هكذا، فكما أذكر حين كنت أعزب أعيش مع زوج أمي، لم أكن مهووسا بالنظام والادخار. لعل «خداوج» زوجتي من جعلتني هكذا، فمنذ تزوجنا وهي تحدثني عن المستقبل. لم نقم عرسا لأنها لم تكن راغبة في تبذير المال على أناس لا هم لهم إلا

(*) Gamelle: أصلها فرنسي ومعناها الوعاء الذي يحفظ فيه الطعام أو اللبن أو الحليب.

http://mzaj4.blogspot.com/

الأكل والشرب، ولم نسكن مع زوج أمي لأنها كانت تفكر في علاقاتنا الحميمية في المستقبل وكيف ستتأثر بوجود رجل غريب معنا، لهذا انتقلت معها بعد الزواج إلى سي مصطفى. قضينا سنة ونصف السنة في فيلاَّ أمها، أين منحتنا شقة مستقلة فيها، إلا أنها سرعان ما طالبتنا بالإيجار فرفضت خداوج وجعلتنا ننتقل إلى بيت قصديري مهجور على بعد كيلومترين من سكة الحديد. قالت لي إنها تفضل الموت على أن تدفع إيجارا أو فاتورة كهرباء. رغم أنها لا تدفع شيئا من جيبها، فأنا من يدفع دائما.

هكذا انتقلنا إلى البيت الذي بقينا فيه لحد اليوم، وكجميع من في البلاد قدمنا طلب سكن اجتماعي باسمي. منحتنا الحكومة منذ ست سنوات سكنا بنواحي الناصرية، شقة من ثلاث غرف في وسط المدينة. أقنعتني زوجتي بمجرد حصولنا عليها أن نبيعها ونبقى في بيتنا القصديري بسي مصطفى، ولاحقا نقدم طلبا آخر باسمها. وحين سألتها عن مصير ثمن الشقة، أجابتني كعادتها أنها تفكر في المستقبل، لهذا ستقتطع جزءا منه وتقتني سيارة مستعملة، تجعلها باسمها حتى لا تثير الشكوك حولي، أما بقية المبلغ فتدخره للأيام السوداء كما تسميها. لم تعجبني الفكرة ولكنني لم أكن أرغب في إغضابها. وهكذا فعلنا.

حين أفكر في الأمر، فجميع جيراني في الحي القصديري فعلوا مثلنا، فمع أنهم حصلوا على شقق من الحكومة إلا أنهم لم يرحلوا وفضلوا البقاء في الحي، وعلى ما يبدو فقد فكروا مثل خداوج بخصوص السيارة، واقتنت كل عائلة سيارة ما.

أنا أيضا بدأت أفكر في المستقبل، لهذا لم أخبر خداوج بشقة لاريوش التي ورثتها، ولا بمقابل إيجارها الذي أدخره كاملا.

لم أصدق حين أخبرني وكيلي العقاري أن بإمكاني الحصول على

http://mzaj4.blogspot.com/

مقـدم عـام كامـل مـن الإيجـار، وأن مقابل إيجار شـقة من غرفتين في لاريوش يساوي مقابل إيجار شقتين من ثلاث غرف في سي مصطفى. حزنـت أن يجبـر أحدهـم علـى دفـع مقابـل لخدمة لـم يحصل عليها. سألته «أليس هذا مخالفا للقانون؟»، أجابني بثقة أن القوانين في هذا البلد وضعت لمخالفتها. ولم يمض أسبوع حتى هاتفني ليخبرني أنه وجد زبونا يرغب في تأجير الشقة خمسة أعوام، يدفع إيجارها مقدما.

وضعت الآلة الحاسبة وأجريت عملية حساب بسيطة. ومع آخر زر ضغطته أدركت أنني أصبحت رجلا ثريا. استغربت من رجل يدفع إيجار خمس سنوات كاملة لشقة تشبه الجحر، ولكنني حين رأيته عند الموثق عرفت السبب. لم يكن الرجل إلا واحدا من «النازلين الجدد»، مـن هـؤلاء القادميـن مـن القـرى والجبال. أغلب الظن أنه باع بقرة أو اثنتيـن ورثهـا مـن أبيـه ودخل العاصمة وهو يظن أنه سـيغزوها ويفك طلاسمها. أرى أمثاله كل يوم وقد أضاعوا كل شيء دون أن يعودوا إلى قراهم خجلا أو خبلا. بالطبع بعضهم حقق طموحه، ولكن بأي ثمن... المهم قلت وأنا أضع مقابل الإيجار في محفظتي: «ربي يكثر الطنوهة باش يعيشو المارقين»(*).

هـل ادخـرت المبلـغ، بالطبـع لا، فأنا رجل يفكر في المسـتقبل. طلبت قرضا عقاريا واشتريت شقة أخرى، ودفعت كل مقابل الإيجار كمسـاهمة شـخصية، ثـم أجـرت الشـقة الثانية لأدفـع بمقابل إيجارها أقساط البنك.

الآن أنا رجل يملك شقتين لا يحتاج إليهما. ومع هذا لا أشعر أنني أمنت مستقبلي بما فيه الكفاية.

(*) مثل شعبي جزائري ومعناه: أكثر الله البلهاء ليتمكن النبهاء من العيش.

http://mzaj4.blogspot.com/

لكنني أحيانا أفكر ألا جدوى من تأمين المستقبل.

لـم أصـارح نفسـي بهـذا ولكنهـا الحقيقة، فأي مسـتقبل لمن هو مثلي.

أقصـد أننـي رجـل مريـض، تـزداد حالتـي سـوءا يومـا بعد يوم. ربما بعد سنوات سيتمكن مني الجنون، هذا على الأقل رأي زوجتي خداوج، كلما رأتني سارحا في عالمي.

أقول لها إن نوبات صرعي خفّت وربما بعد سنوات من المعالجة سـيختفي الصوت من رأسـي وأصير كأي رجل لا يملك إلا صوته، ولكنها لا تصدقني وتتهمني بالكذب عليها.

صحيـح أننـي لـم أخبرهـا بطبيعة مرضي إلا بعد زواجنا. ولكنني لم أر ضرورة في أن تعلم بالأمر، ما دام الذي يحدث لي لا يجعلني عنيفا أو هستيريا، بل بالعكس تماما، كلما أخذت حبة الدواء تنتابني حالة غريبة من الخمول والاستكانة، لهذا قررت أن أقلل من الحبات التـي أتناولهـا يوميـا، آخـذ حبـة فـي الصباح قبل الخـروج إلى العمل وأتبعها بالكثير من القهوة والسـجائر حتى لا أنعس. وفي المسـاء مع انتهاء مداومتي آخذ حبة أخرى. وبعدها لا شيء.

ومع هذا فلا بد أن أعترف أنها لم تجانب الصواب تماما، فمهما يكـن، كان مـن حقهـا أن تعـرف بمرضـي قبل أن أتزوج منها، مع أنني متأكـد مـن أنهـا لـم تكـن لتغيـر رأيها أو تتـردد، فهي لم تتزوجني حبا فـي شـخصي ولا حتـى لتجـد لنفسـها شـريكا في الفـراش كما تحب أن توهمني. تزوجتني لأنها سئمت من لقب «المطلقة»، فعندنا مهما كانت أسـباب الطلاق، تصبح المرأة بمجرد طلاقها عاهرا حتى وإن لم تكن كذلك. وحتى لا أنافق نفسي، فأنا أيضا حين علمت بطلاقها مرتين، ازداد اشتهائي لها.

http://mzaj4.blogspot.com/

إلا أن هذا لم يكن سبب زواجي منها، لا أنكر أن للشهوة دورا في قراري ولكنه لم يكن دورا حاسما. فحين سألتها عن سبب طلاقها وأخبرتني أنه عقرها، عرفت أنني وجدت المرأة المناسبة. بالطبع لم يكن لمن كان بمثل خلقتي أن يتخير في النساء، ولكنني حين علمت بعدم قدرتها على الإنجاب، فكرت أن الزواج منها سيكون غنيمة في كل الأحوال. أقصد أنني أضمن مستقبلا لا أكون فيه مسؤولا على أحد. يكفيني الاعتناء بنفسي وبمرضي.

حتى زوجتي لا تحتاج إلى عنايتي، فما تأخذه مني كل شهر لا يقارن بما تجنيه من صالونها للحلاقة. الآن أصبحت تملك صالونا كبيرا في بومرداس، تشتغل فيه عشر حلاقات. أما هي فلا تزوره إلا بعد الظهر لتشرف على العمل، وفي المساء تعود بالرزم التي تقول لي كلما رأيتها إنها للضرائب وللإيجار. ثم تلعن الحكومة وأيام العوز، ولعلها تعصر عينيها متباكية على حظها وتسألني إن سمعت عن زيادات في أجور الوظيف العمومي، ثم تعرج للحديث عن غلاء العيش وما أصاب التجار من جشع وعن صمت الحكومة وتجاهلها لأوضاع الناس.. المهم تجتر ما تقرؤه من ترهات الجرائد التي أحملها لها كل مساء، وفي ظنها أنني اقتنعت بما تقيأته من كلام، لا هدف لها منه إلا أن أقر لها أنها لا تجني من صالونها إلا التعب.

في النهاية أقر لها بذلك، وأحيانا أكتب لها صكا ببعض الآلاف لأنعم بالهدوء الذي أحتاجه قبل أن أستلقي لأنام. يكفيني أرقي والصوت الذي في رأسي لأضيف إليه صوتا آخر.

http://mzaj4.blogspot.com/

-2-

خرج السائق من كابينته، وتوجه مباشرة إلى الباب المتحركة.

كسر زجاج نافذة صغيرة بجانب الباب وسحب إليه مرفعا أحمر بداخلها. وأخذ ينظر خارجا.

قام الجميع من مقاعدهم ووقفوا مثله أمام الأبواب المتحركة. أما أنا فلم أكن راغبا في الوقوف.

كان جسدي متشنجا وعيناي مغمضتين، بالكاد كنت قادرا على فتحهما.

بمجرد الخروج من محطة الجزائر سأبحث عن سيارة كلندستان تأخذني إلى البيت. لا جدوى من انتظار قطار آخر، فعلى ما يبدو توقفت كل القطارات. أما البحث عن سيارات الأجرة فمضيعة للوقت، لن يرضى أحد أن يوصلني في هذا الوقت إلى سي مصطفى. فسيارات الأجرة كما يعلم الجميع، لا تسير وفق ما يرغب الزبون مثلما يجري في أية بقعة من العالم.

توقِفُ سيارة وتسأل «ساحة الشهداء؟»، فينظر إليك صاحبها من فوق إلى تحت، وحين يتأكد أنك لا تملك ثديين عارمين ولا شيئا يدل على أنك امرأة، يجيبك بجفاء «ليست في طريقي». هذا إن أجابك أصلا، فغالبا لا يتوقف وإن توقف ولم تكن امرأة أو لم تكن في طريقه، ينطلق دون أن ينظر إليك.

أما الكلندستان فأمر آخر، كل شيء يتعلق بما في جيبك، إن كنت تملك الثمن فيأخذك حتى إلى الجحيم. مهنة مربحة بلا ريب.

http://mzaj4.blogspot.com/

أفكر في العام المقبل أن أشتري سيارة، وأعمل بها كلندستان بعد انتهاء الدوام. مثلا، أركنها في الحراش، في ذلك المكان المسمى «الحفصي»، حيث تصطف سيارات الكلندستان وسيارات الأجرة، بمحاذاة «الحفصي» أشهر محلات البن في العاصمة. يمكنني أن أجمع كل مساء حوالي ألف دينار، أو ربما أكثر، فالناس لا يجدون عادة أي شيء يستقلونه إلى منازلهم متى أسدل الظلام. هذه البلاد تغلق أبوابها بمجرد أن يؤذن للمغيب. تتوقف الحياة فجأة، وكأنها بلاد نهارية أو روضة أطفال راشدين، لا يمكنهم البقاء خارجا إذا أظلمت. أنا لم أسافر ولكن الذين سافروا أخبروني أن النقل في البلدان التي زاروها لا يتوقف أبدا، على الأقل لا يتوقف حتى ساعات الصباح. ابتسمت حين سمعت الأمر أول مرة وقلت لنفسي مازحا «الأرجح أن رجال الحكومة من كثرة انشغالاتهم، مثلي لم يسافروا، وإلا لتمثلوا بمثل ما يحدث في الخارج».

ما زلت لم أقرر بعد، ولكن سيكون الأمر رائعا أن أضمن دخلا آخر غير الأجر ومقابل إيجار شقتي، على الأقل لن أكون مختلفا عن زملائي في العمل، فالكثير منهم يستعين بالعمل كلندستان مع انتهاء الدوام.

بالطبع لن أخبر خداوج بأمر السيارة إن قررتُ اقتناءها، ستكون سرا آخر أضيفه إلى أسراري الأخرى. حتى وإن حدث واكتشفت الأمر، فلا أظنها ستغضب طويلا، فأنا مثلها أحب أن أفكر في المستقبل.

حين أفكر في الأمر، فبالإضافة إلى شقتيّ اللتين أملكهما والسيارة التي أنوي اقتناءها، هناك أمور كثيرة لم أخبر بها زوجتي. لا تعلم مثلا أنني ابن زنا أو ابن حرام كما يقولون.

لا أعتقد أنها قد تفضح هذا السر، لأنه من الصعب أن يفضح

http://mzaj4.blogspot.com/

الآن. فالوثائق التي بحوزتي تؤكد أنني كجميع الناس، أملك أبا وأما. اسم أبي عيسى ربيعي، أما أمي فاسمها مليكة ربيعي، لكليهما نفس اللقب. حتى أنني فكرت أنهما ابنا عم، والأرجح أنهما كذلك.

لم تخبرني أمي بشيء عن أبي. في كل مرة كانت تروي لي قصة من شكل، وجميع تلك القصص كانت تؤكد أنها لم تتزوج من أبي، هذا المذكور في شهادة ميلادي على أنه والدي بحكم محكمة لا بعقد زواج. وبعد أن رشدت، لم أعد أحتاج لشهادة الميلاد تلك، ولم يعد يظهر في أوراقي الثبوتية أي أثر على كوني ابن حرام.

لكن الذي يضحكني، بالفعل، في أمر نسبي، هو أن اسم أبي واسم جدي والد أمي متطابقان، فحتى جدي اسمه عيسى ربيعي، ومع أنني لم أعرفه، فقد حدثتني أمي عنه كثيرا، حتى أنها مرة أخبرتني أنني أخذت عنه طوله. سعدت كثيرا بأنني أشبه أحدا في النهاية، ولا أدري إن كان ذلك الذي أشبهه سيكون سعيدا لأنه يشبهني.

منذ أربعة أعوام سألت زوج أمي، رحمة الله عليه، عن عائلة أمي. أخبرني أنه لا يعرف منهم أحدا إلا ابن خالة أبيها. كان يقصد عمي العباس بالطبع، لم أكن أعرفه حتى اختفت أمي ذات يوم، كنت في الثانية عشر من العمر. منذ ذلك الحين أصبح يتفقدني كل مساء، حتى توفي وأنا في العشرين.

الغريب، أنه طوال تلك السنوات، لم يسع أن يعرفني بأحد من أولاده أو أحفاده، مع أنني كنت متيقنا أنه يقيم معهم في العاصمة. لم أكن أعرف عنه شيئا، باستثناء مكان عمله.

لهذا فمن الصعب على زوجتي أن تكشف سر نسبي.

إلا أن ثمة سرا آخر أخشى ألا يطول الوقت وتكتشفه.

http://mzaj4.blogspot.com/

أعرف أن من شأنه أن يقلب الدنيا عليَّ، ويجعل زوجتي خداوج تفكر في مستقبلها معي. ومع ذلك، عذري في إخفائه أنني خشيت على زيجتي أن تهدم. فأنا كزوجتي تماما، أفكر في المستقبل دائما.

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل التاسع

رجل يشبه أمي

أسمع الناس يهتفون، حتى خالتي لويزة تهتف معهم.

تقف كبقيتهم أمام الأبواب المتحركة وتنزل مثلما ينزلون من القطار.

تشير إليَّ أن آتي. أشير لها بدوري فتبتسم وتتأبط ذراع ابنها ثم يختفيان.

أسمع السائق يصرخ: «بهدوء، لن ينطلق قطار الديازال حتى يخرج الجميع».

يلمحني ويشير إليّ بدوره. أبتسم له فيتجاهلني ويعود لصراخه.

أحاول الوقوف، فأشعر بوخز في ركبتي وأعود للجلوس مضطرا ككسيح يأمل أن يرى الناس كساحه.

يشير إليّ السائق من جديد ويتقدم نحوي. يقول لي شيئا، أرى شفتيه تتحركان.. لا شيء يصل أذنيّ.

أبحلق فيه وأمدّ يدي إليه. يصمت ويمد يده إليّ ويرفعني.

الآن يمكنني أن أسير إلى الباب وذراعي حول كتفيه.

يأتي رجل آخر ويسندني بدوره.

أخيرا بلغت الباب المتحركة، يمكنني الآن أن أرى قطار الديازال.

أنظر يمينا ويسارا، فأرى الناس مستمرين في النزول.

أبتسم للسائق بضعف، فيبتسم لي بشفقة.

http://mzaj4.blogspot.com/

أنا الآن على متن قطار الديازال، أجلس على مقعد من الجاموس الصلب. أشعر ببرودة قاعدته على دبري.

أتذكر محفظتي فأرفع رأسي لعلي ألمحها في أي مكان، ثم أخفضه وقد أقبل السائق يحملها بيده.

أركز سمعي، ما زلت لا أسمع شيئا.

أشعر بالتعب. عيناي تُطبقان.. لا يمكنني أن أقاوم.

لا بأس، يمكنني الآن أن أنام، ولكن لبعض الوقت فقط، فما زلت غير مستعد لأنام للأبد.

لا خطر عليّ حتى من الصوت، لم يعد يخيفني.. لا، ما زال يخيفني ولكنه مثلي متعب.. مني، سينام أيضا لبعض الوقت.. لبعض الوقت فقط.

أطبقت جفني.. «صباح النور يا عتمة».

* * *

ماذا حلَّ بالصوت الغائر فيّ؟.. لا أعلم. والحقيقة لا رغبة لي في معرفة مصيره.

المهم أنني استفقت ووجدتني في محطة الجزائر. ليس هنا أحد غير رجال الشرطة والدرك وبعض عمال سكة الحديد.

الأضواء فاترة والشبابيك مغلقة، وعلى باب المحطة يقف حشد عظيم من رجال الأمن.

بينهم امرأة تتحدث بغضب.

أقف لأستبين ما يحدث. أرى أنها امرأة عجوز، تتحدث بنرفزة وغضب وتشير إلى حقيبة يد كانت تحملها. حقيبة منتفخة بحلقات معدنية.

http://mzaj4.blogspot.com/

أحاول أن أسترق السمع دون جدوى.

أتقدم أكثر.

العجوز تصرخ. ارتفع صوتها. تقول لهم إن أحدهم سرق كل ما كان معها من مال.

يبدو صوتها مألوفا لديّ، ولكنني بقدر ما أدقق في وجهها لا أعثر في ذاكرتي على وجه يطابقه.

لا أهتم وأجلس مجددا، فما زلت أشعر بإعياء في كامل جسدي.

عليّ أن أستجمع قواي لأخرج من محطة القطار وأبحث عن أي كلندستان يقلني إلى البيت، وبحسب ما أخبرنا به السائق، فلا جدوى من البحث عنه في ساحة الشهداء أو نواحيها. عليّ أن أسير على قدميّ حتى شارع موريتانيا أو أكثر إلى ساحة أول ماي، أين تصطف سيارات الكلندستان كعادتها بمحاذاة نافورة الماء العملاقة أو بجانب محطة الحافلات العمومية، وإذا لم أعثر لهم على أثر، سأجدهم حتما بأي زقاق من أزقة بلكور.

بعدها، سيكون كل شيء بخير. كما كان الأمر دائما، حتى في تلك الأيام التي خِلت سابقا أنها لن تنتهي. ولكنها في النهاية مضت ولم يعد من المجدي تذكرها، وإن حدث وأجبرت على تذكرها فلا فارق عندي، ما دمت موقنا أن لا شيء يمكن فعله لتتغير، لا الأسف ولا الندم ولا الحزن ولا السعادة ولا أي شعور يغير أي شيء.

بالنسبة لي، الحياة مجرد فرص متلاحقة، فكما لا أفرح لاغتنام أية فرصة لا أحزن على تفويت أخرى. أنا في ذلك كالذي لا يحزن حين تفوته حافلة أو يفوّت على نفسه امرأة ساقطة، لا يحزن لأنه يعلم أن غيرهما سيأتي لاحقا. ربما هذا ما يجعلني موقنا أن كل

http://mzaj4.blogspot.com/

شيء سيكون بخير، فما حياتي إلا دليل آخر على صدق ما أقول.

ومع أنني لا أحب أن آسف على ما حدث، إلا أنه من الجيد أن أتعلم من الأمور السيئة في حياتي. أقصد تلك الأمور التي كنت أملك خيار ألا تحدث واخترت العكس. فمثلا تعلمت اليوم درسا سأحفظه بقية حياتي، وهو أن على الإنسان أن يتشبث بما اعتاده ولا يأبه بالتغيير، حتى وإن كان في تغيره أكثر إنسانية وأقل توحشا. فمهما حاولت أن أهوِّن ما حدث لي اليوم، فلن أستطيع أبدا أن أنكر أنني السبب فيه. لو لم أغير من عاداتي ولم أهتم بنظرات تلك الشحاذة وضيعت كل ذلك الوقت الثمين في تخمين سبب نظراتها، ثم التوقف عندها وسؤالها والتصدق عليها، لو لم أختر ذلك لما تأخرت عن قطار الخامسة والنصف، ولكنت في هذا الوقت في منزلي أو على الأقل في الطريق إليه.

حين أفكر في الأمر، لم يكن علي أن أنتظر كل هذا الوقت لأتعلم الدرس الذي تعلمته اليوم. ولو كان زوج أمي حيا لواجهني بحقيقة غبائي، ولكان قال لي بوجوم: «هذا درس كان عليك أن تحفظه منذ سنين».

في ذلك لن يكون مخطئا، فحين كنت في الثامنة عشر من عمري وثار الشارع كما يثور اليوم، خرجت مع الذين خرجوا، وأخذت أردد كالببغاء تلك الشعارات التي تتحدث عن الحرية والديمقراطية وتحث على نبذ الاشتراكية والحزب الواحد. أقول كالببغاء، لأنني لم أكن أفهم شيئا في تلك الشعارات المسجوعة بعناية كأغنية كتبت قبل أدائها بأشهر، وحتى أكون صادقا، فأنا اليوم، رغم ما قرأته من كتب وما أراه على النيت والتلفزيون، ورغم مئات الخطب التي استمعت إليها، ما زلت أجد صعوبة في فهمها، فما بالي وأنا في الثامنة عشرة من عمري.

http://mzaj4.blogspot.com/

المهم أنني خرجت كالجميع أردد ما يردد في الشارع، ولم أشعر إلا وأنا أقتاد إلى حيث لم أعلم حتى اليوم. وهناك حيث اقتدت كان علي أن أتعلم الدرس الذي تعلمته اليوم، على الأقل هذا ما كان يتوجب علي بعد أيام من الصفع والركل والضرب على القفا.

وكما قلت، ما حدث قد حدث ولا سبيل لتغييره. ما يعنيني الآن أن أخرج من هذه المحطة وأجد وسيلة نقل تقلني إلى البيت.

أعرف أن أقل ما سيأخذه مني الكلندستان ألفا دينار، لن يقبل بأقل. سيطالب بثلاثة آلاف في البداية ولكنه سيرضى في الأخير بألفين. كل شيء في هذا البلد خاضع للمساومة، وبحسب تجربتي المتواضعة في الحياة يمكنني أن أجزم أن لا شيء يخرج عن نطاق التفاوض، حتى تلك الأمور التي يسميها السياسيون «مبادئ» يمكن المساومة فيها وأحيانا يمكن تجاهلها بالمرة. بدليل أننا الوطن الوحيد الذي لا يرسم خطا واضحا بين المعارضة والسلطة، فكلاهما يتشابه إلى درجة التماهي، إلى درجة أن ترشح المعارضة خصومها في السلطة، ومع ذلك تقول لنا في الجرائد إنها معارضة وتملك مشروعا، لا نعرف عنه إلا أنه مشروع.

شخصيا، أنا لا أعارض ولا أساند أحدا، ببساطة لأنني لا أهتم بتبني مبادئ أساوم حولها. هذا أيضا درس تعلمته في شبابي، ولأكون دقيقا في طفولتي، حين استيقظت ذات يوم وعرفت أن أمي لن تعود.

في ذلك اليوم استيقظت متأخرا على غير عادتي. أظنها كانت الثانية زوالا حين فتحت عيني على وجه زوج أمي. كان رأسي يؤلمني بشكل غير طبيعي، ولكن اللاطبيعي حقا، هو أنني استيقظت وزوج أمي في البيت. لم تكن تلك عادته، وهو كما عرفته لا يغير من عاداته أبدا.

http://mzaj4.blogspot.com/

المهـم أنـه أخـذ كل وقتـه ليتحدث، وحين تحدث أخيرا أخبرني أن أمي رحلت ولن تعود، وأن لي خيارين: إما أن أبقى معه ويكون لي أبا وأما، وإما يسلمني للحكومة وترى ما تفعله بي.

بالطبـع، اختـرت أن أظـل معـه، وحسـنا مـا فعلت. فقد كان لي، مثلما وعدني، أبا وأما وربما أكثر.

ما زلت أذكر حين سألني ذات مرة. كنت وقتها في الثالثة متوسط، وكان قد مضت ثلاثة أعوام عن رحيل والدتي.

- ألا تشعر بالقليل من الحنين لأمك؟

- بلى، أشعر.

- ولكنك لا تتحدث عنها أبدا.

- ربما..

- أترغب أن نتحدث عنها؟

- لا أرى أن هنالك شيئا نتحدث فيه. لقد ذهبت وانتهى الأمر.

- ومع ذلك، فلا بأس أن تذكرها بين الحين والحين، ففي النهاية هي أمك.

- لا أرى جدوى من ذلك، إلا إذا رغبت أنت في الحديث عنها.

- أنا؟!..

وتلكّك قليلا.

قاطعته بلطف:

- بالطبع فقد كانت زوجتك؟

صحّح لي:

- ما زالت كذلك.

حين قال لي ذلك، غيمت عيناه حتى خلت أنه سـيبكي، ولكنه

http://mzaj4.blogspot.com/

حيـن مسـحهما بمنديـل ورقـي أخرجه من علبـة المناديل الورقية التي تكون دائما بحوزته، عرفت أنه عمش فحسب.

كان مـن عـادات زوج أمـي الكثيـرة، أن يحمـل معـه دائمـا علبة مناديـل ورقيـة أينمـا حـل. واحـدة علـى حجـره، واحـدة علـى مائدة المعيشـة، واحدة في غرفة نومه، واحدة في جيب سـترته، واحدة..، المهم لا يكون في مكان إلا وكانت معه مناديل ورقية.

اعتقدت في البداية أنها بسـبب تعرق يديه الشـديد، ولكنني مع كل تلك السـنين التي قضيتها معه، أدركت أنها كانت بسـبب هوسـه المبالغ فيه بالنظافة.

قلت، محاولا أن أضفي بعض المرح:

– أنت تهتم بي مثلما كانت تفعل هي، في الحقيقة أشعر أحيانا أنك أمي.

– أمك؟

– أنت تشبهها، ألم تلاحظ؟

– أشبه أمك؟!.. يا شقي أنا رجل.

– لا بأس في ذلك، أنت رجل وتشبه أمي.

صمت وهو يحدجني بنظرات غريبة.

قال وهو يمسح يديه المتعرقتين:

– ألهذا الحد صرت تكره أمك حتى تشبهها برجل.

ضحكت وأنا أراه جادا في حديثه وحملقته.

– ربما.

– ربما؟!

– أو ربما لأنني صرت أحبك إلى درجة أنني أشبهك بأمي.

http://mzaj4.blogspot.com/

وإذ ذاك، برقت عيناه وتبسَّم. كانت تلك من المرات النادرة التي رأيته فيها مبتسما.

* * *

هدأت المرأة العجوز وانزوت بجانب باب المحطة خارجا، كانت تتقدم رجال الشرطة الواقفين بترقب يلوكون حديثا ما. أما هي فكانت تبحث في حقيبتها وكأنها لم تصدق بعد أنها فقدت كل مالها.

من مكاني هذا لا أستطيع تبين ملامح وجهها، رغم أنني منذ قليل لمحت وجهها لماما، ومع أن صوتها بدا لي مألوفا إلا أنني أكاد أجزم أنني لم أرها من قبل.

ربما بعد لحظات حين أخرج من المحطة، إذا ظلت واقفة هناك، سأدقق في وجهها مرة أخرى، وأرى إن كنت أعرفها أم لا.

ها أنا مرة أخرى أفكر فيما لا يجدي، ولكن لا حيلة لي الآن غير الانشغال بأي شيء. هذا أفضل من أن أقع فريسة للصوت الغائر فيّ.

أعرف أنها مسألة وقت فحسب ويستحوذ على عقلي. ما دمت لم أحمل معي حبة «هالدول» إضافية، فكل شيء ممكن معه. أقصى ما أخشاه أن يتمكن مني قبل أن أصل منزلي أو حتى قبل أن أجد سيارة تقلني إلى البيت، ولكن لا فائدة من التخطيط الآن، ما دمت لست أنا من يخطط. ستحدث الأمور كما هو مقرر لها، وعلي أن أتأقلم معها، وأقرر بحسب ما يترتب لاحقا.

تتوقف المرأة عن التنقيب في حقيبتها. ترفع رأسها. يا الله ما أجمل ابتسامتها.

تخاطب شرطيا وتريه شيئا في يدها. أمد رقبتي وأرى أنها صورة ما.

http://mzaj4.blogspot.com/

تحدثه بسعادة. أحاول أن أفهم ما تقوله له.. بيني وشفتيها صف من الشرطة وباب المحطة الزجاجية وهتاف قادم من بعيد.

يربت الشرطي على كتفها ويقبل جبينها، فتقبل ظاهر كفه وتنصرف وفي يدها تلك الصورة وعلى كتفها حقيبتها المنتفخة ذات الحلقات المعدنية.

انتهى الأمر كما يبدو على كل خير. وكما أقول دائما «كل شيء سيكون على ما يرام».

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل العاشر

ماذا يكون غدا؟

-1-

أنا، عبد العزيز ربيعي، أتكلم

يقول لي إنه يحبني ويرغب في استضافتي الليلة في بيته. وكأنني لا أعرفه ولم أعجنه بيديّ. أليس هو من جاءني منذ أعوام يشحذ اللقمة ويسألني أن يعمل عندي في أي شيء.

اليوم أصبح يملك شقة وزوجة ورصيدا في البنك. ولعله لا يسمح لي بالمبيت في المقهى إلا لإذلالي، لتذكيري بما كنته وما أصبح عليه. ولكن لا بأس، فأنا من اخترت نهايتي هذه، حين بعته المقهى بنصف ثمنها، ورفعته من نادل كلب إلى معلم يأمر وينهى.

من كان ليفكر أنني سأنتهي هكذا، أتسول اللقمة والمبيت، مرة عند هذا الكلب المتبجح ومرة عند ابن خالتي، ومرات عند رجال أحسنهم نسبا ابن عاهرة. ولكنها دعوات أمي التي ماتت دون أن تمنحني السماح، ولعلها دعوات مليكة وأبيها، أو هي دعوات هؤلاء جميعا لاحقتني إلى هنا، حيث خلت أنني سأبدأ حياة أخرى غير تلك التي تركتها في عين طير الزين التي غادرتها بعد وفاة أمي أشهرا فقط إثر الحكم على عمي بعشرة أعوام في السجن.

لن أقول ما حفظه الناس في عين طير الزين وأدعي البراءة الآن.

http://mzaj4.blogspot.com/

ولن أكابر وأقول إن ما اقترفته كنت مجبرا عليه، فأنا من اختار كل ما حصل معي، بدءا باغتصاب مليكة وانتهاء ببيعي لمصدر رزقي بسبب ديون القمار والعاهرات. أنا من اختار أن أكون النذل الذي كنته طيلة حياتي، لأنتهي بأقل مما بدأت به.

بيد أنني لست حزينا على ما فقدته بقدر ما أنا حزين على ما لم أحصل عليه أبدا. أقصد أن جميع ما أخذته من عمي غدرا وكل ما ورثته عن أمي وعن جدي القايد، لم تعد ذكرى فقدانه تثير في نفسي أي أسى، على عكس رغبتي الغبية في معرفة مصير ولدي من مليكة ومصافحته ذات يوم، والتي استحوذت على فكري حتى قبل أن أفقد كل شيء. ولكن ترددي اللعين ما جعلني أتقاعس عن معرفة مصير مليكة وولدي منها، رغم أنه كان بالإمكان أن أسأل العباس وأعرف عنهما كل شيء.

اليوم، لم يعد الأمر مهما بعد أن حسمت المسألة، ولم يعد السؤال الذي جعلني أستحل كل شيء يؤرقني كما كان يفعل.

«ماذا يكون غدا؟».

لا شيء غير قبر ينتظرني وجنازة لا يسير فيها أحد. أكاد أقرأ شاهد قبري:

«عبد العزيز ربيعي
ولد في 16 فيفري 1940
توفي في.....
مات لا رحمة الله عليه»

http://mzaj4.blogspot.com/

وعلى عكس قبور من تركوا شيئا أو ولدا خلفهم، سيظل قبري غير مبني وشاهده لوحة من تلك التي يكتب عليها الشحاذون عادة: «صدقة لوجه الله»، غير أنها على خلافها لن تثير شفقة أي كان.

أكثر ما أعرفه عن الغد، أنني حين أستيقظ سأودع ابن خالتي وأشكره مرغما على ضيافته، وحين يسلم عليّ كعادته أهمس له في أذنه أن يمنحني مائتي دينار لأعود لساحة الشهداء. لن يردني بالطبع، ولعله سيبتسم لي حين يدس صدقته في جيب سترتي ويقول لي بلسانه: «لا تجعلنا نشتاق إليك، عد لزيارتنا في أي وقت تشاء». ولكنه حين يقولها أسمع قلبه يسألني بجفاء: «أرجوك، حاول ألا ترينا وجهك من جديد». سأسمع كلا الوداعين وأنصرف كعادتي إلى موقف الحافلات لأستقل حافلة أخبر قابضها أن لا مال معي، فيرأف لحالي ويقلني دون مقابل إلى ساحة الشهداء، ومن هناك أسير على قدمي إلى مقهى التلمساني وأطلب شايا وأجلس في شرفتها أنظر إلى البحر، حتى إذا أذن لصلاة المغرب أتوجه إلى مقهى رابح تلك التي كانت ذات يوم مقهاي. أدفع له مائة دينار للمبيت ومائة أخرى لآكل أي شيء أو أشرب أي سم.

http://mzaj4.blogspot.com/

-2-

يصمّني الصياح القادم من ساحة الشهداء. أشعل سيجارة وأنظر حولي.

وجوه الناس شاحبة وعيونهم سارحة ومذهولة. أكاد أقول إنه الخوف ما أراه على وجوههم، الخوف مما سيحدث لاحقا، مما سيأتي به الغد.

يبتسمون ويطمئنون بعضهم. أسمعهم يتحدثون:

- هل هي ثورة؟
- سمعت أن الشعب يطالب بخفض الأسعار.
- ولكن الأسعار قررتها الحكومة.
- إذن، فهم يطالبون بإسقاط الحكومة.
- تقصد تلك التي اختارها الرئيس.
- هي بالذات.
- وإذا لم يقبل الرئيس.
- يسقط الرئيس إذن.
- أيعقل؟
- ولِمَ لا؟
- لأنه الرئيس.
- هو كأي شخص، يبقى ويذهب.
- أستغفر الله.

http://mzaj4.blogspot.com/

- أنا أتحدث عن الرئيس وليس عن الله.

يضحك الرجلان ويحجب عني صوتهما وأنا أتجاوزهما.

المعيشة، العدالة، الحرية. تلك من مسائل الغد الذي لم يعد يعنيني. كل ما يهمني الآن أن أجد سيارة أجرة تقلني إلى منزل ابن خالتي بدرارية. على ما يبدو لن يكون الأمر سهلا على الإطلاق، فالطريق مقفرة من السيارات والراجلين. ربما أجد سيارة بأسفل المعبر بجوار المحطة. في أسوأ الأحوال إذا لم أجد أية سيارة، أعود إلى المقهى وأقضي الليلة هناك.

يمر بقربي شاب ملثم في يده قضيب حديدي. يتجاوزني ثم يلتفت نحوي.

ينزع لثامه، فيكشف عن وجه يشبه الضياع. عيناه غائرتان وأنفاسه متقطعة.

يسألني:

- واش عمو. كاش ما يلا(*).

لا أفهم عنه وأستمر في السير.

يقهقه وكأنه سمع نكتة بذيئة ويلتثم من جديد.

أخشى أن ألتفت فيدرك فزعي. ولكن علام أفزع، على غد لا أملكه أم على حاضر ليس لي؟!

ومع ذلك يتسارع نبض قلبي وأنا أنزل من المعبر. ظلمة مفزعة وروائح كريهة. ولكنني سرعان ما أهدأ حين أبلغ نهاية درجه.

يتلقفني القفار وأنا في الأسفل، حيث لا سيارة أجرة ولا راجلين.

أشعر بالفزع مجددا وبجفاف فمي، فألعق شفتي حتى يبتل شاربي

(*) دارجة جزائرية معناها: هل ثمة من خطب.

http://mzaj4.blogspot.com/

فأمسحه بكفي وأستمر في السير.

بيني والمحطة خمسون مترا فحسب. هناك سأعرف إن كنت سأجد سيارة تقلني إلى بيت ابن خالتي أم أعود أدراجي إلى المقهى لأقضي الليلة مع ذلك النادل كريه الرائحة. أقسم إنه كجيفة تتحرك، كأنه ميت على قيد الحياة.

لا جدوى من التفكير، تسعة وأربعون مترا وأعرف الجواب على سؤال لم يعد يشغلني وينغص عليّ.

لم تعد الاحتمالات كثيرة كما كانت ذات يوم، كما كانت حين دخلت العاصمة قبل سنين، حاملا على كتفيّ جثتين وبين يديّ شهادتا وفاة. كنت سعيدا وقتها بكل غنائمي، إلى درجة أنني لم أشم رائحة الموت من جلدي، هذا الذي بقدر ما غسلته بالتناسي بقدر ما فاح بالموت.

ثمانية وأربعون مترا وأعرف أي الاحتمالين سألقى: بيت ابن خالتي أو أرجل النادل النتنة.

لن أشغل نفسي بالتمني، فلطالما علمت بالنهاية. أؤخرها ربما ولكنها ستكون دوما هناك، حيث لا بد أن ينتهي المسير. لذلك أمشي إلى حتفي سعيدا، لا بحتفي الذي سأنتهي إليه، بل بقدرتي على أن أسير إليه دون أن يباغتني هو بالقدوم.

بيني وبين ما سيكون غدا سبعة وأربعون مترا، لا شيء يفصلنا سوى سيارات الشرطة ومدرعات الدرك المصطفة وراء بعضها بانتظام ينتهي عند المحطة. بدأ الشك يساورني بشأن وجود سيارة أجرة بجانب المحطة، ولكن لا خيار لي إلا أن أسير وأقابل قدري.

لن يستغرق الأمر أكثر من ثوان وستة وأربعين مترا وأقطع شكي

http://mzaj4.blogspot.com/

بيقين النهاية، ومع ذلك يتسرب إلى قلبي بعض الأمل حين ألمح سيارة أجرة.

أسرع الخطى: خطوة، خطوتان، ثلاثة.. يتسارع نبض قلبي، فتجبرني السلامة أن أتوقف لآخذ نفسي.

ما زالت السيارة واقفة هناك.

هدير المحرك يخترق سمعي، فيفور الدم في عروقي وأشعر بالرغبة في اللحاق بسيارة الأجرة.

تتحرك قدماي ببطء وأراني أخطو مرة أخرى: خطوة، خطوتين، ثلاثا..

أتحرك ببطء ولكن بثبات.

«يمكنني أن أصل». أحث نفسي وبيني والنهاية عشرون مترا فحسب. لم يبق عن اليقين إلا أن أقبض عليه. حينها يمكنني أن أستريح وأكتب تقريرا كاملا ووافيا عن غديَ الآتي. ولكنني حين أرى السيارة تنطلق أشعر بالخيبة وقد خلتني لم أعد أشعر بها ما دمت لم أعد آمل في شيء.

الآن أعرف كيف يكون غدي، تماما كما أعرف خاتمتي.

http://mzaj4.blogspot.com/

-3-

أعود أنا حسان ربيعي لأقول

البارحة حدث أمر غريب.

لأول مرة منذ سنين لم أحتج إلى أن آخذ قرصا منوما لأنام، حتى أنني لم أتعب نفسي كعادتي بقراءة الجرائد لأغفو. بمجرد أن وضعت رأسي على وسادتي حتى رقدت. وكأنني كنت أعلم كيف سيكون الغد.

هكذا هي الأمور الجميلة، لا تحدث معي دون مقابل، ومقابل النوم الهانئ الذي نعمت به في الأمس هو هذا اليوم المتعب الطويل. بدليل أنني لم أشعر بزوجتي حتى استيقظت وهي نائمة بجواري نوما عميقا كثيرا ما حسدتها عليه.

قلت لها مرة:

- مع نومك الثقيل هذا، من الممكن أن يدخل عليك أي واحد ويخطفك دون أن تشعري.

أجابتني بدلال:

- حتى أنه يمكن أن يضاجعني دون أن أعلم.

- لا أعتقد.

- ولِمَ.

- لأنه الشيء الوحيد الذي يجعلك تستيقظين.

ضحكت كعادتها كلما تحدثنا في الجنس.

أضافت:

- ومع هذا لم أرك تجرب الأمر معي ولو مرة.

http://mzaj4.blogspot.com/

- لم يخطر لي الأمر فقط.
- من الممكن لو تجرب الأمر هذه الليلة..

واستدركت:

- هذا إن كنت ترغب فيّ.
- ولِمَ لا أرغب؟

قلت متصنعا الاستغراب.

- لا أدري، ولكنكَ لم تعد ترغب فيّ كما كنت.
- لعله التعب فقط.
- التعب؟!
- نعم، التعب.
- ألم تلاحظ أنك لم تقربني منذ شهرين؟

قالت ذلك بمرارة وتابعت:

- إما أنك تملك عشيقة في مكان ما، وإما أنك أصبحت...

شعرت حينها بما يجب أن يشعر به أي رجل في هذا الوضع، ولكن هذا الشعور ما كان ليربكني كما أربكني كلامها.

فكرت «أتكون قد اكتشفت السر؟». ولكنني سرعان ما هدأت حين بدأت تداعب فخذي.

قلت في نفسي لو أنها اكتشفت الحقيقة لما طفقت تداعبني.

أضافت وهي تقترب مني:

- ما رأيك أن أسامحك الليلة؟

أجبت متغابيا:

- كيف؟
- تعرف كيف.

والتصقت بي، تقبل رقبتي.

http://mzaj4.blogspot.com/

دفعتها بلطف وقبلت جبينها.

قلت متناعسا:

- ليس الليلة، فأنا متعب. غدا يوم راحة ونفعل ما تحبين.

أدرت لها ظهري، وفي لحظات تصنعت النوم، رغم أنني لم أنم ليلتها ساعة.

ربما هي الأخرى لم تنم مثلي، ولكنني لم أجرؤ على أن أفتح عينيّ لأتحقق من الأمر.

مهما يكن، لم يعد بمقدوري أن أتصنّع الرغبة، فسنين الإدمان على «الهالدول» جعلتني أفقد أية رغبة في الجنس. كنت أعرف أنها مسألة وقت وأفقد القدرة على ممارسة الجنس بصفة طبيعية، ولكنني لم أكن أعتقد أنني سأفقدها مرة واحدة دون مقدمات.

حين كلمت طبيبي قال لي إنها من آثار الدواء الجانبية ولا مناص منها إلا ببعض الحيلة. وبالفعل جعلني أكسب بعض الوقت حين وصف لي أقراص «الفياكتال»، علبة من ثمانية أقراص. قال لي «عليك أن تكون ذكيا، استعمل قرصا كل أربعة أيام»، ولكنني مع إلحاح زوجتي أنهيتها في أسبوع واحد. وحين طلبت منه أن يصف لي علبة أخرى، أخذ يحدثني عن مخاطر مثل هذا المقوي على القلب، وعلى عدم قدرته على تحمل مسؤولية وصفه لي، خصوصا وأن الرسم التخطيطي لقلبي لا يبشر بأي أمل، ثم أخذ يحدثني عن معجزة يمكن أن تحدث لو حاولت التقليل من إدماني لـ «الهالدول». لهذا أحاول منذ شهر أن لا آخذ أكثر من قرصي دواء كل يوم.

أنا الآن بين خيارين: إما أن أسعد زوجتي وأموت بذبحة قلبية، وإما أن أعيش وأقتل زيجتي. في كلتا الحالتين سأكون مجبرا على القتل، وبحسب ما سأقرر يكون غدي.

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الحادي عشر

مرحاض عمومي

الاسم: أحمد.
اللقب: مولاي.
السن: خمسون عاما.
الشهادة: مهندس دولة في الميكانيكا العامة.
اللغات: العربية، الفرنسية، الأمازيغية، الإنجليزية.
المهنة الحالية: ...

سيكون رائعا لو ملأت الفراغ وكتبت «المهنة الحالية: رئيس ورشة»، أو حتى عامل في ورشة. ولكنها لن تكون الحقيقة، فأنا منذ تخرجت من الجامعة وعملي «باحث عن وظيفة».

لم أعد أتذكر كم من ملف أودعته وكم عدد المسابقات التي اجتزتها. الأكيد أنني لو احتفظت بكل تلك الملفات لاحتجت أن أؤجر عمارة بكاملها لأتمكن من تكديسها، أو ربما لاحتجت لسنة كاملة لأقدر على حرقها.

المهم، منذ سنتين استقلت من وظيفة الباحث عن وظيفة والتحقت بعمل حقيقي، وصار من الممكن أن أضيف شيئا إلى سيرتي المهنية التي لم تتغير منذ تخرجي.

يمكنني الآن أن أكتب بكل فخر: «المهنة الحالية: مشرف على مرحاض عمومي».

http://mzaj4.blogspot.com/

سـأضع سـطرا أحمر تحت كلمة «عمومي»، وبذلك أضمن ألا يسخر مني مُستخدِمي المستقبلي، لأنني أعلم بحسب التجربة أو ربما قرأت ذلك في جريدة ما، أن «العمومي» وصف هام وخطير، قد تؤدي السخرية منه إلى السجن.

ومـع هـذا، يمكننـي أن أكتـب مهنتـي بكل فخـر دون أن أضيف إليهـا وصـف «العمومـي» هـذا، لأن الذين لم يشـتغلوا في هذه المهنة لن يعرفوا أبدا أي فخر تكسـوه صاحبها، وقطعا لا يعرفون مصاعبها التي لا تنتهي، حتى أنني أفكر في أن أكتب موضوعا حولها وأرسله لأية جريدة لتنشره. ربما بعدها يتوقف المتبجحون في الصحافة عن وصف مهنتهم بمهنة المصاعب.

تضحكـون؟!.. مـن حقكـم أن تضحكوا. ولكن دعوني أحدثكم عـن مهنتـي هـذه أولا، وبعدهـا سـتدركون حتمـا أنكـم تسـرّعتم فـي الضحك.

في البداية، كنت مثل الجميع أعتبر مهنة المشرف على مرحاض عمومي، مبعثا للسخرية أو التقزز. ولعلني قبل أن أصبح مشرفا، دخلت مرحاضا عموميا مرة أو مرتين، دون أن ألاحظ حتى وجه المشـرف عليه. رغم أن أهم ما في المراحيض العمومية هو المشرف بالتأكيد. ربمـا كنـت فـي ذلـك كجميـع زبائني الذين رغـم تغيرهم وتباينهم، لا ينتبهون إليّ، رغم أنني أنا من ينظف خلفهم.

أنا في ذلك كالمخرج السـينمائي، لا أحد يلاحظه رغم أنه كل شـيء. ومـا دمـت أعـرف أنكـم طيبون ولا خطـر منكم، لأنكم طيبون أيضا، سأهمس لكم «أنا كالرجل الكبير الذي يقرر كل شيء في هذه البلاد، رغم أن لا أحد يراه، ويكتفي بالاعتقاد أن من يقرر حقا، هو الرجل الأنيق الذي نراه كل يوم على التلفاز».

http://mzaj4.blogspot.com/

إلا أنني لن أنكر أن من بين زبائني من لاحظني، ومن بينهم أيضا من فهم الغايات الكبرى من مهنة المشرف على مرحاض، كما أن بينهم من يقدر الجهد الذي أبذله كل يوم لأوفر خدمة هي الأشرف والأهم في كل الخدمات التي يمكن تقديمها على الإطلاق. ولكن من الصعب أن تجعل جميع الزبائن كذلك، فما بالك بالذين لم تطأ أقدامهم أرض مرحاضي الأعرق في كل العاصمة.

أذكر مثلا حين نصح أحد الوزراء الشباب الجامعيين من أمثالي بإنشاء مشاريع لمراحيض عمومية، تخلق لهم ولسواهم مناصب شغل قارة. جميع من سمع تصريحه أو قرأه على الجرائد وصفه بالمجنون والمعتوه، حتى أنا قبل أن أشرف على مرحاض سوق كلوزال، سخرت منه وتمنيت أن يقال من الحكومة وتقال الحكومة معه بسبب تجرئه على الجامعيين. الآن أدرك فداحة حكمي عل هذا الوزير الطيب، حتى أنني أتمنى أن يشرفني ذات يوم ويدخل مرحاضي، وآخذ معه صورا فيه.

لن أنكر أنني أحيانا يتملكني الإحباط من كل ناكري الجميل هؤلاء. صحيح أنني آخذ مقابلا عن دخولهم، ولكنه لاشيء مقارنة بما أوفره لهم من راحة جسدية وعقلية وعاطفية لا توفرها لهم كل خدمات العالم. فبمجرد أن يدخل الزبون إلى مرحاضي يدرك أنه في بيته، يفعل في قمرته ما يشاء. المهم أن يلتزم الهدوء فيما يفعل. لا أقصد بالطبع التبول والتغوط أهم غايات المرحاض، بل كل تلك الأفعال التي قد تمارس في مرحاضي وتكون ممنوعة في أماكن أخرى.

أنا كشاب، أو أقول ككهل ما زال يعيش شبابه، أعرف كل ذلك الكبت الذي يعيشه الشباب، لذلك أسمح لهم بالترويح عن أنفسهم بأية وسيلة يرونها مناسبة، حتى أنهم بمجرد أن يخرجوا من عندي،

http://mzaj4.blogspot.com/

أدرك كم أن دوري مهم في التنفيس على الجميع.

وحين أقول الجميع، فأنا أعرف ما أقول. تكفيني زياراتي المسائية للحجرات حين أغلق المرحاض في الثامنة ليلا، وأرى تلك الكتابات على الجدران في القمرات النسائية والرجالية لأشعر بالامتنان لذلك الرجل الطيب الذي مكنني لأكون مشرفا على هذا المكان الرائع، وحين أهم بقراءتها أشعر بالرضا على نفسي، لأنني اخترت عملا، يسمح لكل المكبوتين من رجال ونساء أن ينفسوا عن أنفسهم، وأحيانا أن يتصلوا ببعضهم دون واسطة، بفضل إعلانات الحب التي تزين جدران مرحاضي.

بهذا أخبر أحيانا المشككين بنبل وظيفتي فيتضاحكون ويقهقهون وكأنني أسرد عليهم نكتة، ولكنني سرعان ما أتوقف عن محاولة إقناعهم، لأنني موقن أن الأيام كفيلة بذلك. تماما كما فعلت، حين مرضت يوما وفتحت المرحاض متأخرا عن موعده. وجدت زبائني يقفون طوابير طوابير أمامه، دون أن يعلموا إن كنت سأقدم أم لا. للحظة شعرت بالغبطة وأنا أراهم يمسكون بطونهم ويتقافزون كفئران تجارب ويترجونني أن أفتح لهم، حينئذ أدركت أنهم رغم تنكرهم لنبل وظيفتي، يعلمون أن لا غنى لهم عني وعن المرحاض الذي اصطفوا أمامه، كما يفعلون عادة في كل موسم حين تندر أو تختفي سلعة ما. ولكنني على خلاف التجار الذين يقدرونهم من دون سبب، لم أعمد مثلهم إلى رفع مقابل الدخول. فكما قلت، أنا أقدم خدمة أشرف من كل الخدمات.

* * *

يمكنني، الآن بعد سنتين من التحاقي بوظيفتي، أن أقول إنني

http://mzaj4.blogspot.com/

أملك القدرة على تمييز جميع زبائني، حتى غير المداومين منهم. جميعهم يشترك في نفس الملامح التي أراها على وجوه الراغبين في الحصول على خدماتي الضرورية، خصوصا ونحن نعيش في مدينة لا مراحيض فيها، حتى المقاهي والمطاعم لا توجد فيها مراحيض، وإن وُجدت، تقرأ على أبوابها تلك الجملة التي من كثرة ما استعملت حفظها الجميع: «المرحاض مغلق بسبب أعمال الصيانة». يمكنك أن تذهب وتعود بعد سنة وستجد نفس الجملة ونفس اليافطة معلّقة على أبوابها. لا أحد يستغرب الأمر حتى أنا المشرف على أعرق مرحاض عمومي في العاصمة، ببساطة لأن الجميع نشأ في بلدنا على مبدأ «المشاريع غير القابلة للاكتمال»، فحتى بعد نصف قرن من الاستقلال ما زالت العاصمة ورشة كبيرة، وجميع مدن الجزائر كذلك، لا أقصد بسبب المشاريع الجديدة، بل بسبب تلك التي سمعنا باقتراب آجال تشطيبها في زمن الطفولة، ولكنها لم تكتمل حتى بعد ثلاثين عاما.

قلت، يمكنني أن أعرف زبائني بفضل ما يرتسم على وجوههم من مائة متر، مهما حاولوا إخفاء ملامحهم التي يشتركون فيها قبل طلبهم خدماتي. جميعهم إلا امرأة واحدة تختلف عن الجميع.

فمنذ سنة تقريبا، بدأت تطلب خدماتي كل يوم من أيام الأسبوع، إلا يومي الخميس والجمعة، وحين غيروا عطلة نهاية الأسبوع إلى الجمعة والسبت، أصبحت تحضر إلا في هذين اليومين.

إذا فكرت في الأمر، هي امرأة غريبة الأطوار. في الستين أو أكثر. مضبوطة كالساعة السويسرية العتيقة. فبمجرد أن أراها في الصباح أعرف أنها العاشرة بالضبط، لا تزيد ولا تنقص دقيقة. وحين تعود مساء أعرف أنها السادسة إلا خمسا وثلاثين دقيقة بلا هامش للخطأ.

قلت غريبة لأنها لا تنبس أبدا بكلمة، مكتفية بالتبسم حتى حين

http://mzaj4.blogspot.com/

بدأتُ الاهتمام بها على غير عادتي مع الزبائن. فيها شيء من السحر، جعلني أشعر أن علي التعرف عليها عن قرب. ومع أنني حاولت أكثر من مرة التودد إليها، إلا أنها تردني بصمتها وابتسامتها الساحرة ونظرتها الآسرة. كل ذلك جعلني ألح عليها، حتى أنني لم أعد أقبض منها مقابل الدخول، فقط لتلاحظ اهتمامي بها.

لا أقول إنني وقعت في حبها، فمهما يكن هي امرأة عجوز وأنا رغم تقدمي في السن أستحق ما هو أفضل. لكنني رغم ذلك، كلما وقعت عليها عيناي، تتحرك فيّ أشياء لا تتحرك في العادة إلا حين أستلقي مساء على سريري وآخذ في تذكر كل زبوناتي ذوات الأجساد الغضة والجميلة. ربما هو الفراغ ما جعلني أهتم بها أو ربما عيناها العسليتان ونظرتها الحادة ما تجعلني أتخيل أمورا غريبة تحدث بيننا ولو بدا الأمر شبه مستحيل.

مهما يكن، لاحظتني مرة وشكرتني، ثم رمقتني بنظرة أقسم إنها جعلتني أنسى سنوات بطالتي وأتمنى لو يتوقف الزمن في تلك اللحظة.

هي غريبة أيضا، لأن دخولها مرحاضي ليس لنفس الأسباب العادية. كل يوم تدخله بشكل وتخرج منه بشكل آخر، حتى أنني في بداية الأمر تصورت، رغم قوة تركيزي، أنني بصدد زبونتين. وحدث مرة أن حسبت حين دخلت بشكل وخرجت بشكل آخر أنها لم تخرج أبدا، فهلعت خشية أن يكون قد أصابها أي شيء في الداخل. وحين لم أجد واحدة بحجرات النساء، أدركت أنها تغير هندامها وتخرج دون أن ألاحظ.

لم أسألها عن ذلك، فأنا كما قلت أحترم خصوصيات زبائني، وهم أحرار فيما يفعلون بمجرد أن تطأ أقدامهم مرحاضي.

* * *

http://mzaj4.blogspot.com/

كعادتي اليوم، حين عادت المرأة العجوز مساء غازلتها فلم ترد ولم تبتسم، وحين همت بالمغادرة قلت لها كما صرت أقول لها كل مـرة: «الأجـرة مدفوعـة». لـم تعرني اهتمامـا ولم تنظر صوبي. كل ما فعلته أنها فتحت حقيبة يدها المنتفخة ذات الحلقات وسلمتني ورقة بألف دينار. ألف دينار من أجل خدمة بعشرة دنانير.

صحت «هذا كثير»، ولكنها لم تلتفت واستمرت في سيرها. لم تكن كعادتها رشـيقة وسـريعة الخطوات. بدت كأنها تسـير في جنازة لا نعش فيها، تثاقلت خطواتها وبالكاد كانت قادرة على حمل حقيبة يدها. كانت تسـير وكأن أحدا يجبرها على السـير أو يدفعها لتسـحب قدميها فحسب.

شعرت وأنا أراها كذلك أنها ذاهبة دون عودة. ولكن ما أدراني، فأنا كما قلت لا أتدخل في خصوصيات زبائني.

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الثاني عشر

هل معك عشرة دنانير؟

«هل معك عشرة دنانير؟».

لا تكف عن ترديد سؤالها كلما مر بها واحد من هؤلاء الذين لا شغل لهم إلا المشي والتسكع.

أفهم أن يمتلأ الشارع بالراجلين في ساعتي بداية المداومة ونهايتها، ولكن أن يستمر في الامتلاء بينهما فهذا أمر غريب، تماما كالمقاهي التي تكاد تفيض بالزبائن في كل ساعة من اليوم، وكأننا شعب لا عمل له إلا التسكع واحتساء القهوة والأكل، والأكيد التغوط أيضا، بدليل أنني سألت مرة صاحب مرحاض سوق كلوزال عن متوسط دخله اليومي، فقال دون تردد عشرة آلاف. يعني أن مرحاضه يزوره يوميا ألف شخص، حتى بارون مخدرات محترم لا يمكنه أن يجني مثل هذا القدر من المال. أما أنا بكشك التبغ الذي أملك منذ ثلاثين عاما فلا أحلم بمثل هذا الكسب أبدا.

ومع هذا، فلا أعتقد أنه يجني ما تجنيه تلك المتجلببة التي تقف كل يوم أمام الكشك تسأل كل من يمر بقربها أن يعطيها عشرة دنانير، فبحكم أنها جارة في العمل، يمكنني أن أجزم أنها تجني أحيانا مثل ما يجنيه صاحب المرحاض والأكيد أنها تجني أضعاف ما أجنيه أنا، وهي على خلافنا لا تدفع فواتيرَ أو ضرائب، كل ما تجنيه فهو لها.

لا حسد والعياذ بالله، ولكنني لا أقدر ألا أقارن المسائل وألا أهتم بكل ما يدور في الجوار، خصوصا وأنني الثابت الوحيد في كل المنطقة، فمنذ أكثر من ثلاثين سنة وأنا أعمل في كشك التبغ هذا، ولم

http://mzaj4.blogspot.com/

أغير فيه شيئا حتى اضطررت إلى ذلك حين أصبح يبدو مقرفا بسبب ما أصاب الجدران من تلف. كما أنني على عكس جيراني التجار لم أغير حرفتي كما فعل أصحاب المكتبات من معارفي، وتحولوا في طرفة عين من كتاتبيين محترمين إلى مجرد بائعي سندوتشات قذرة. ثم يطل عليك هؤلاء الحمقى في التلفزيون ويخبرونك أن الشعب لا يقرأ.

لا يقرأ، أي سخافة هذه وهم يمنعون الكتاب عنه ويقبلون من كل كتاتيبي أن يغير حرفته دون سؤال.

أنا مثلا، رغم أن التبغ والجرائد تدر علي ما يستر الحال، إلا أنني لا أكتفي بهما. أعرض دائما كتبا مستعملة للبيع، ولأكون صادقا مع زبائني أقرأ ما يمكنني قراءته منها، حتى أحسن البيع والنصيحة. ولكن الناس لم يعودوا كما كانوا وقت بدأت العمل في الكشك، لا يقتنون الكتب كما كانوا، لا لأنهم لا يقرؤون، بل بسبب غلاء كل شيء، فلا يكاد ينتصف الشهر حتى تراهم يشحذون الدينار والعشرة أملا في الستر. لا كما تفعل تلك المرأة المتجلببة التي امتهنت التسول رغبة في الثراء.

ومع هذا، فلا حسد. كل ما أرجوه أن تجد لنفسها مكانا آخر تتسول فيه، وتريحني من سؤالها الذي حفظته وحفظه من اعتاد المرور بها «هل معك عشرة دنانير؟».

من لا يملك عشرة دنانير؟!.. حتى الموظف المغلوب على أمره يملكها، حتى البطال الذي يأخذ المصروف من أبيه يملكها. لهذا جميع من يمر بها يعطيها ما تطلب، دون أن يعلم أنه ما أن تحين الخامسة والنصف، تنصرف وفي حقيبتها الآلاف والآلاف.

تسأل الجميع، والجميع يعطيها ما تسأل، إلا ذلك الرجل الطيب الطويل، أكثر زبائني وفاء على الإطلاق. لا تكاد تراه حتى تخرس لتسأل من يليه.

عادة، حين يمر بجوارها، تخفض رأسها وتنظر إلى الأرض دون

http://mzaj4.blogspot.com/

أن تسأله، وحين يمر تعود لسؤالها وكأن شيئا لم يحدث وكأنها لم تخرس أبدا.

تمنيت لو أسأله أن يقضي بعض الأيام معي في الكشك، لعلها حين تراه تمتنع عن الوقوف أمام محلي وترحل إلى الأبد، وإن لم تفعل، فعلى الأقل سأنعم ببعض الراحة من سؤالها اليومي ذاك. لكنني اليوم، بعد الذي رأيته منها، لا أعتقد أن ثمة احتمالا لتحقق أمنيتي.

اليوم، وبشكل غير منتظر، تجرأت ورفعت رأسها وهو في الجانب الآخر من الطريق أسفل شارع شاراس. وحين هم بقطع الطريق أخذت تحدق فيه، حتى إذا بلغ مكانها، سألته على غير العادة.

هو أيضا اندهش من سؤالها، رأيت ذلك وهو يطلب كما اعتاد علبة سجائر وحبات حلوى، إلى درجة أنه حين سلمتها له لم ينظر صوبي ولم يشكرني كعادته.

ولكن الغريب أنه تردد في الانصراف وعاد أدراجه وأعطاها ألف دينار. أقسم إنها كانت ألف دينار، رأيته يسحبها من جيبه كمسطول فقد عقله ووضعها في كفها وانصرف. أي مخبول هذا الذي يعطي عرقه لشحاذ، حتى وإن كان الحكومة نفسها. فأنا مثلا لولا الحيلة لأغلقت محلي أكثر من مرة، أتتصورون كم تطالبني الحكومة كل عام؟.. بأكثر من نصف ما أجنيه، أليس هذا ابتزازا قانونيا، تسولا مشروعا.

مهما يكن، انصرف الرجل دون أن يلاحظ ما حدث للمرأة بعد انصرافه. توقفت فجأة عن السؤال وبدأت تنحب بصوت سمعه كل الناس. كانت تبكي إلى درجة أنني رأفت لحالها وخرجت من كشكي وأعطيتها بعض الماء، ولكنها سرعان ما استرجعت هدوءها وانصرفت دون أن تشكرني على الأقل. لا يهم، فأنا لم أفعل هذا إلا لوجه الله، أما هي فلتذهب إلى الجحيم.

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/

الفصل الثالث عشر

اصطدام غير مفاجئ لأقدار في الطريق

ما دام الجميع قد صمت، فلا بأس أن نكمل القصة، من لحظة كان حسان ربيعي في بهو محطة الجزائر، يحاول أن يسترجع قوته ليغادر المحطة ويجد أية وسيلة نقل تقله إلى بيته.

في تلك اللحظة، ومن مكانه لم يعد يرى المرأة العجوز ولا حتى ما يحدث في الشارع، بسبب الحشد الكبير للشرطة والدرك أمام باب المحطة. نظر حوله فشدته الساعة الجدارية البيضاء المعلقة عند المدخل. لقد كانت السابعة إلا خمس دقائق.

لا وقت لديه، عليه أن يتحامل على نفسه ويخرج بسرعة ويكسب بعض الوقت، ربما حينها يتمكن من الوصول إلى ساحة أول ماي على قدميه واكتراء سيارة إلى منزله بسي مصطفى. هكذا يضمن الركوب قبل أن تتفاقم الأوضاع في الخارج.

بهذا فكر وهو يسحب ساقيه الطويلتين حتى بلغ باب المحطة، مجتازا رجالا ببدلات خضراء وزرقاء لم ينشغلوا به وهو ينصرف كما كانوا منشغلين بمن يقترب منهم في الخارج، ولكنه ما أن بلغ الصف الأخير منهم، تذكر محفظته. لقد نسيها في الداخل على المقعد حيث كان جالسا منذ لحظات بالبهو.

حين حاول العودة، شعر بيد غليظة تمسك بكتفه، استدار فإذا به دركي في كامل زيه.

http://mzaj4.blogspot.com/

حدق فيه، فاتسعت عيناه مذهولا.. كان الدركي في نفس طوله.

كانت تلك أول مرة يرى رجلا في مثل طوله، حتى أنه ولأول مرة في حياته لم يكن مضطرا لخفض رأسه ليخاطب أحدهم.

فحصه بعينين مذهولتين، كان الدركي في مثل طوله ولكنه كان أكثر وسامة ولياقة منه. ربما حزن أن التشابه لم يكن كاملا، إلا أنه سرعان ما استعاد بشاشته حين فتح الدركي فمه ورأى داخله فراغا أفزع من فراغ فمه.

- لا يمكنك الدخول سيدي.

قال الدركي باحترام لم يعهده في رجل أمن، ولكنه لو فكر أكثر، لأدرك أنه لا يعرف من رجال الأمن إلا رجال الشرطة والشنابط، وهؤلاء لا يختلف اثنان على أنهم من اللباقة في آخر درك.

أجابه وكلمة «سيدي» ترن في أذنيه، حتى بدا مرتاحا لحديثه معه:

- أستعيد محفظتي في الداخل حيث نسيتها.

- لا يمكن سيدي، لا أحد يدخل المحطة من غير ترخيص.

حاول أن يقنعه ولكنه حين رأى حاجبيه يلتصقان وجبينه ينكمش حتى ارتسمت عليه أخاديد لا تبشر بخير، فضل أن يتراجع وينسى حقيبته اللعينة، فلم يكن فيها إلا تلك الجرائد السخيفة ورواية بولاتوفتش التي لم تعد قادرة على إخراس الصوت الغائر فيه، بدليل ما حدث معه في القطار منذ دقائق.

فكّر: «من حقي أن أعود لاسترجاع محفظتي»، وحين هم ليجادل الدركي من جديد، باغته الصوت الغائر فيه: «ومن حقي أنا أن تعود لتسترجع حياتك». لم يعره انتباها وحمل ساقيه يحثهما على المسير.

كان في ذلك كعبد العزيز وهو يدفع بنفسه لبلوغ محطة القطار،

http://mzaj4.blogspot.com/

حيث أمل أن يجد سيارة بجوارها.

كان يسير بصرامة جندي في مهمة، وهو لا يعلم أن بينه وبين ابنه الذي لم يره قط عشرين مترا فحسب، وكان من الغريب أيضا أن المرأة التي لطالما حلم أن يحصل على غفرانها هي في ذات المسار، غير بعيدة عن المحطة، واقفة عند موقف الحافلات تفكر ماذا تعمل بعد أن فقدت كل مالها.

ربما في هذا فكر أيضا حسان ربيعي، حين خرج من المحطة ووضع يده في جيبه. فطن للتو أن لا شيء في جيبي سرواله. فتش في جاكيته الكشمير أيضا فلم يعثر على أية نقود.

«يا إلهي.. هل سُرقت؟!».

صرخ في داخله وقلبه ينبض بشدة.

حاول أن يتذكر أين وضع ماله، فذعر حين أدرك أن الألف التي منحها للمرأة المتجلببة كانت آخر ما تبقى له، فكالغبي لم يتذكر وهو يتصدق بها أنه بدّل، في الصباح قبل أن يخرج للعمل، جاكيته التي يضع فيها كعادته محفظة النقود.

كان عليه أن يهدأ ليجد حلا. أليس هو من يقول دائما إن كل شيء سيكون على ما يرام، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن ثمة حلا ما سيجده ولو بعد حين.

في الحقيقة، ما كان هذا ليشغله لو نظر إلى يمينه على بعد عشرة أمتار فقط، وأدرك أن المرأة التي هجرته ذات يوم واقفة بجانب موقف الحافلات، ولكن أنى له أن يتعرّف عليها بعد كل ذلك العمر. لو أحصى تلك المسافة الزمنية التي تفصلهما لقال دون تردد ثمانية وعشرين عاما، ولو أحصاها بكل ما تغير في البلاد لأكد دون تردد

http://mzaj4.blogspot.com/

أيضا، ألا مسافة تفصلهما غير الوهم، ذلك الذي عاشه هو وغيره من مواطني الوطن الإجباري، وهم الحب الذي يشعرون به نحو امرأة لا تعبأ بهم، لا تعطيهم بقدر ما تسلبهم، حتى غدوا دون أن يدركوا وطأة الزمن شعبا مسلوبا من كل شيء، ومع ذلك يختبرون صبرهم على ذلتهم كل عام، على أمل أن تحبل المرأة ذات مرة، وتنجب ككل نساء العالم العشق الذي وضعوه فيها، ولكنها في كل مرة يقربونها تخذلهم ولا تنجب.

لكن حسان ربيعي لن يلاحظ المرأة الواقفة على بعد أمتار منه، ببساطة لأنه كان مشغولا بأمر العودة إلى بيته، إلى حيث يمكنه أن يأرق أو ينام، حيث يملك الحق المطلق أن يحب أو يكره، حيث يمكنه أن يستريح ويبدأ غده كما يرغب هو، لا كما هو مرسوم بحبر الجبر الذي يحب الكتابة به المخرج المتذاكي كلما فكر في الغد وكتب عنه.

ولكنه الجبر أيضا ما تعشق المشيئة أن تكتب به، على الأقل هكذا قررت حين كتبت أقدار الثلاثة وجعلتها تجتمع دون أن تلتقي في محيط محطة الجزائر. ولكنها بمجرد أن كتبتها، تركتها تائهة، تسير وفق ما يقرر الثلاثة أو بحسب ما تشاءه الصدف.

وما دام الثلاثة لم يقرروا شيئا لحد الساعة، فمن العبث أن يفترض أحد أنهم سيقررون في النهاية ما سيحدث لاحقا. بالطبع سيكون من الرائع الآن، ما دام الثلاثة في محيط المحطة، أن ترى الأم ابنها وتتعرف عليه ثم تعانقه، وكان من المبهج لو يراهما عبد العزيز فيتعرف على ابنة عمه وتُعرِّفه هي على ابنه الذي لم يره أبدا ويحصل منهما على السماح الذي طالما تمناه، وهكذا تنتهي قصة حسان ربيعي بأفضل مما بدأت منه.

كان من الممكن أن يحدث هذا، ولكن المشيئة ليست بتلك

http://mzaj4.blogspot.com/

البساطة ولا بهذه الطيبة اللامتناهية لتجعل الأمور تنتهي وفق ما هو متوقع دوما، بدليل أن حسان ربيعي حين كان يفكر في حل لمشكلته الطارئة على بعد أمتار عن والديه، سمع طلقات نار صادرة من بعيد.

لم يكد يعرف من أية جهة جاء الصوت حتى تحركت قدماه، ترجوان له النجاة. تلك التي دفعت بالدم في جسد عبد العزيز المترهل وجعلته يركض بأقصى سرعة، وكأن قلبه المتهاوي عاد بثلاثين عاما إلى الوراء. والنجاة أيضا ما سحبت المرأة العجوز من أحزانها وجعلتها تهرول عائدة أدراجها إلى المحطة.

وفي غمرة الرغبة الجامحة في النجاة، هربا من الموت المنتظر وفرارا إلى حياة لا ترغب في أحد، ركض الثلاثة، لتتقاطع أقدارهم وتصطدم دون أن يخيروا فعلا في تصادمها المفاجئ، ودون أن تمكنهم المشيئة من تلك النهاية المثالية بالالتقاء.

وفي غمرة الرغبة الجامحة في النجاة أيضا، تقرر المشيئة أمرا تافها في لحظة الاصطدام، ربما لتخلي مسؤوليتها وتبرئ نفسها من تهمة الجبر التي التصقت بها كما تلتصق عادة بأي مخرج متذاكي تجاه شعبه المسلوب من كل شيء، حين يمنحه لحظة وهم لحرية لن يسعه الوقت لإمساكها، وحين لا يمسكها، يصيح متبجحا به: «أرأيت أعطيتك حرية لم تحسن إمساكها، أعطيتك المرأة التي تتهمني باغتصابها ولم تستطع أن تجعلها تحبل بما تشاء، إنك أنت من اخترت أن تظل امرأتك عاقرا إلى الأبد».

سيصيح به كما ستصيح المشيئة في ثلاثتهم ذات يوم حين يسألونها الخيار وتقول لهم «أعطيتكموه.. ألم تلاحظوا؟»..

لم يلاحظوا؟.. بالطبع لم يلاحظوا، لأن غريزة النجاة أقوى من كل فطرة. لأن الملاحظة تستحق وقتا أطول من ذلك الذي مُنحه حسان

http://mzaj4.blogspot.com/

ربيعي حين اصطدم بالمرأة العجوز وسقطت أرضا. كان محتاجا لوقت كاف ليرى سقوطها، ولوقت أطول ليمعن النظر فيها ويحدس من عينيها الحادتين أية علاقة قد تربطهما معا. والأكيد أنه كان يحتاج لكل الوقت ليلاحظ حقيبتها ذات الحلقات المعدنية بجوارها وقد تقيأت جلبابا أسود ونقابا أكثر سوادا من ليلته تلك.. ليلة السابع عشر من نوفمبر.

تمت في جانفي 2011

سمير قسيمي

Kacimi.samir@yahoo.fr

http://mzaj4.blogspot.com/

الفهرس

الإهداء..... 5

القسم الأول
تقريرٌ وافٍ عن حالة موتٍ مستعجلة

الفصل الأول: قطار الخامسة والنصف..... 9
الفصل الثاني: ماذا لو توقف الله عن البكاء..... 53
الفصل الثالث: العشاء الأخير..... 63
الفصل الرابع: قصص اختفاء..... 77
الفصل الخامس: مكاشفة..... 95
الفصل السادس: حكايات قاع البئر..... 119
الفصل السابع: المحاكمة..... 143

القسم الثاني
محاولةٌ بائسة لترسيم غدٍ آتٍ

الفصل الثامن: مجرد تفكير في المستقبل..... 167
الفصل التاسع: رجل يشبه أمي..... 177
الفصل العاشر: ماذا يكون غدا؟..... 187
الفصل الحادي عشر: مرحاض عمومي..... 197
الفصل الثاني عشر: هل معك عشرة دنانير؟..... 205
الفصل الثالث عشر: اصطدام غير مفاجئ لأقدار في الطريق..... 209

http://mzaj4.blogspot.com/

http://mzaj4.blogspot.com/